جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

الفلسفة الأسلوبية للفظ جدل في القرآن الكريم في ضوء علم اللغة النفسي

الدكتور

طه عبدالرحمن عمر عبدالرحمن

المدرس في قسم أصول اللغة بكلية اللغة العربية بأسيوط
جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية

العدد الخامس والعشرون

للعام ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

الجزء الثالث عشر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢١م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

الفلسفة الأسلوبية للفظ جدل في القرآن الكريم في ضوء علم اللغة النفسي

طه عبدالرحمن عمر عبدالرحمن

قسم أصول اللغة بكلية اللغة العربية بأسيوط ـ جامعة الأزهر ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني : taha-abdelrhman.47@azhar.edu.eg

الملخص

ارتباط الدلالة اللغوية بالدلالة النفسية لم يفت علماؤنا القدامى التنبيه عليه، وأول ما يطالعنا من هذا القرآن، وإذا كانت الألفاظ ليست إلا رموزًا تعبر عن المعاني الكامنة في النفس فقد وجد العلماء علاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية وأنشأوا ما يسمي بعلم اللغة النفسي، وهنا يأتي أسلوب القرآن بلغته في التعبير بالصورة المحسة عن المعني الذهني والحالة النفسية، ولذا آثرت أن أكتب بحثًا يتعلق بهذا الموضوع فجاء بعنوان:(الفلسفة الأسلوبية للفظ جدل في القرآن الكريم في ضوء علم اللغة النفسي). ومن أهم ما دفعني إلى اختيار هذا البحث ما يلي. أولًا: حاجة علم اللغة النفسي إلي مزيد من الدراسات المتخصصة التي تفتح نوافذ نفسية جديدة لفهم النص وتلقيه. ثانيًا: إثبات أن اللغة العربية ليست مجرد ألفاظ جامدة يغلب عليها الأسلوب المنطقي الجاف، وإنما تتمتع بإيحاءات نفسية. وكان منهجي في هذا البحث منهجًا وصفيًا، وكان من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، أولًا: كذب الشبه التي ألقيت علي اللغة العربية من أنها مجرد ألفاظ جامدة يغلب عليها الأسلوب المنطقي الجاف، وافتقادها للاتجاه النفسي وأبعاده وآثاره. ثانيًا: ما ورد من الجدال في القرآن كان علي سبيل الذم إلا في أربعة مواضع، وفي هذا إشارة إلي أنه في الأصل ينبغي ألا يكون، وأنه من شأن المعاندين إلا ما كان من الجدل للوصول إلي الحق.

الكلمات المفتاحية : القرآن الكريم، الفلسفة، الأسلوبية، جدل، علم اللغة النفسي .

ISSN 2356-9050 الترقيم الدولي
ISSN 2636 - 316X الترقيم الدولي الإلكتروني

حولية كلية اللغة العربية بجرجا
مجلة علمية محكمة

The stylistic philosophy of the term argumentation in the Holy Qur'an in the light of psycholinguistics

Taha Abdul Rahman Omar Abdul Rahman

Origins of Language - Faculty of Arabic Language in Assiut - Al-Azhar University - Egypt.

Email: taha-abdelrhman.47@azhar.edu.eg

Abstract

The link between linguistic significance and psychological significance Our ancient scholars did not fail to alert us to it, and the first thing that we read of this Qur'an is, and if the words are nothing but symbols expressing the meanings inherent in the soul, the scholars found a relationship between linguistic phenomena and psychological phenomena and established what is called psycholinguistics, and here The method of the Qur'an comes in its language in expressing the sensible image of the mental meaning and the psychological state, and therefore I chose to write a research related to this topic, so it came under the title: (Stylistic Philosophy of the Word Controversy in the Holy Qur'an in the Light of Psycholinguistics). Among the most important factors that prompted me to choose this research are the following. First: Psycholinguistics needs more specialized studies that open new psychological windows for understanding and receiving the text. Second: Proving that the Arabic language is not just static words dominated by a dry logical style, but rather has psychological overtones. My approach in this research was a descriptive one, and one of the most important findings of the study was, firstly: the falseness of the resemblance that was thrown on the Arabic language, that it is just static words dominated by the dry logical method, and its lack of psychological direction and its dimensions and effects. Second: What was mentioned in the debate in the Qur'an was on the basis of slander except in four places, and this is an indication that it should not originally be, and that it is about the stubborn ones except what was in the debate to reach the truth.

Keywords: the Noble Qur'an, philosophy, stylistics, controversy, psycholinguistics.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله حَمْد الشاكرين، نحمده أن جعلنا من أهل لغة كتابه الكريم، وصلاة لا تحصى على الهادي الأمين(ﷺ) وعلى آله وأصحابه الأكرمين إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن ارتباط الدلالة اللغوية بالدلالة النفسية لم يفت علماؤنا القدامى التنبيه عليه وإن لم يوجد لديهم جهد مستقل يعالج ارتباط تلك الدلالة اللغوية بالنفس، موحضًا أبعاد هذا الارتباط، والعوامل التي تقف خلفه- حتي وإن وضع قواعده الغربيون- وأول ما يطالعنا من هذا القرآن الكريم بتفسيراته التي قدمها العلماء منذ عهد الصحابة- رضي الله عنهم- حتي يومنا هذا، ولا عجب في ذلك، فالقران الكريم المصدر الأول للدراسات العربية خاصة اللغوية منها.

وإذا كانت الألفاظ ليست إلا رموزًا تعبر عن المعاني الكامنة في النفس فقد صاغ القران الكريم ألوان هدايته المتعددة في قوالب من الألفاظ بلغت حد الكمال فصاحة، وصاغها – أيضًا- في أرقي الأساليب التي ملكت علي ذوي الفطرة السليمة نفوسهم، واستحوذت منهم علي قلوبهم.

وقد وجد العلماء علاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية من تفكير وخيال، فنفسية الشعوب والجماعات ليست واحدة، فمثلًا هناك جماعة تعيش في بيئة إسلامية، وهناك جماعة تعيش في بيئة الأوثان والأصنام، لا شك أن هذا يؤثر في نفسية كل جماعة، وبالتالي تؤثر هذه الظواهر النفسية في الظواهر اللغوية، ولذا اعتنى العلماء بهذه المسألة عناية خاصة، وأنشؤوا ما يسمي بعلم اللغة النفسي، وهنا يأتي أسلوب القرآن الكريم بلغته المعجزة في التعبير بالصورة المحسة عن المعني الذهني والحالة النفسية، فإذا به يصور الحدث فيرسمه ويمنحه الحياة الشاخصة والحركة المتجددة، حتي يتوهم أنه ذو صورة تشاهد وأنه مما يظهر في العيان، ويجعل الإثارة الوجدانية قائمة علي التشخيص، حتي إنه يرينا المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، فإذا المعني الذهني

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية مشهد مرئي، وإذا النموذج الإنساني والطبيعة البشرية مجسمة، ولا شك أن هذا التصوير والتشخيص يؤثر في النفوس حتي مع العلم بصدق الخبر، ولذا آثرت أن أكتب بحثًا يتعلق بهذا الموضوع حتى عثرت عليه فجاء البحث بعنوان:

(**الفلسفة الأسلوبية للفظ جدل في القرآن الكريم في ضوء علم اللغة النفسي**).

وقبل البدء في تفصيل الموضوع أحب أن أشير إلي أنه في إطار الدراسات التداولية ساعد تحليل النص في الكشف عن دور الوحدات المعجمية في الإفصاح عن الموقف النفسي تجاه حدث أو شيء يشير إليه النص، وقد تبين في كثير من هذه الدراسات أن هذا الدور لا يقتصر على الكلمات التي تعبر في معناها الأساس عن الحدث أو الشيء بل يتعداها إلى كلمات أخرى؛ إذ أظهر تحليل سياقات استخدامها ارتباطها في كثير من الأحيان بالتعبير عن الموقف النفسي تجاه ذلك الحدث أو الشيء.

ومن هنا فإن المقصود بالفلسفة الأسلوبية للفظ جدل في القرآن هي فلسفة الأسلوب القرآني في التعبير عن معني المجادلة في كل موضع، أعني في أي شيء كانت المجادلة، وأهداف وأغراض تلك المجادلة، وما ترتب علي تلك المجادلة من آثار، كل هذا في ضوء علم اللغة النفسي الذي يفصح عن نفسية المجادل قبل المجادلة، وأثناء المجادلة (أعني طريقة عرضه للجدال وغرضه) وبعد المجادلة (أعني تأثير هذه المجادلة، والنتائج المترتبة عليها).

ومن أهم ما دفعني إلى اختيار هذا البحث ما يلي.

أولًا: حاجة هذا الموضوع(علم اللغة النفسي) إلي مزيد من الدراسات المتخصصة التي تفتح نوافذ نفسية جديدة لفهم النص وتلقيه.

ثانيًا: إثبات أن اللغة العربية ليست مجرد ألفاظ جامدة يغلب عليها الأسلوب المنطقي الجاف، وإنما تتمتع بإيحاءات نفسية بما لها من أبعاد وآثار في التحليل.

ثالثًا: اخترت لموضوع البحث لفظة(جدل)؛ لأنها من الألفاظ التي تحتوي علي مفاعلة وحركة من عدة جوانب، ولا شك أن هذا يساعد علي إبراز وتقوية الجانب النفسي لها.

صعوبات البحث: لا شك أن أي بحث لا يخلو من بعض الصعوبات، ومن أهم الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث- والتي ذللها توفيق الله لي- جدة علم اللغة النفسي، وعدم حصولي علي مؤلفات تحليلية متخصصة تستوعب مداخل وأبعاد هذا العلم.

وكان منهجي في هذا البحث منهجًا وصفيًا، وقد جاء في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس المصادر، على النحو التالي -

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، ودوافع اختياري له، والمنهج الذي سرت عليه، والصعوبات التي واجهتني، وخطة البحث.

التمهيد: وعنوانه: مصطلحا(الجدال وعلم اللغة النفسي) مقدمة تعريفية، وقد جاء على النحو التالي-

أولًا: علم اللغة النفسي ماهيته ومجالاته.

ثانيًا: مصطلح الجدال، الماهية والأنواع والأحكام والمظاهر.

المبحث الأول: أسلوب القرآن في التعبير عن جدل الإنسان في ضوء علم اللغة النفسي.

المبحث الثاني: أسلوب القرآن في التعبير عن جدل الرسل في ضوء علم اللغة النفسي.

المبحث الثالث: أسلوب القرآن في التعبير عن جدل المؤمنين في ضوء علم اللغة النفسي.

المبحث الرابع: أسلوب القرآن في التعبير عن جدل الكفار في ضوء علم اللغة النفسي.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الخاتمة: وقد اشتملت على أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها من خلال البحث.

فهرس المصادر: وقد اشتمل على المصادر التي ساعدت علي إخراج البحث.

وبعد، فهذا جهد في ميدان الدراسات اللغوية، فإن كان ما قدمته هذه الدراسة صوابًا- أو قريبًا من الصواب- فهو من فضل الله وتوفيقه، وإن كان غير ذلك فهو مني، وحسبي أنني اجتهدت في رحاب القرآن، قاصدًا الحقيقة، ومبتغيًا ما عند الله من أجر وثواب، والله من وراء القصد، وصلي اللهم وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

التمهيد

أولًا: علم اللغة النفسي ماهيته ومجالاته .

المتخصص في علم اللغة يلاحظ تلك التطورات السريعة والمتلاحقة في مجاله، فقد بزغت فروع لغوية حديثة لم تكن معروفة من قبل بشكل واسع ومستقل وعميق؛ لأن المناهج اللغوية الحديثة لم تعد مقصورة علي دراسة الصيغ والأبنية الظاهرة للغة بل تعدت إلي دراسة جوانبها النفسية، ولذا فمن بين هذه الفروع التي بزغت حديثًا علم اللغة النفسي، الذي أصبح فرعًا من فروع علم اللغة، وعلاقة علم اللغة بعلم النفس كانت "مصدرًا لجدل عنيف ثار مؤخرًا، ويرجع هذا أصلا إلي عناية (تشومسكي) الخاصة بهذه القضية، ونظريته في علم اللغة تنتهي إلي أن أعظم عمل يمكن الإسهام به في علم اللغة هو أن ندرس العقل الإنساني، وأن علم اللغة سيكون أكثر دقة ووضوحًا إذا ما عد فرعًا من علم النفس الإدراكي "[١]. وقد نشأت العلاقة بين علم اللغة وعلم النفس عندما بدأ جورج ميللر في التعاون مع تشومسكي في دراسة بعض الجوانب النفسية من اللغة، وفي الحقيقة تعود العلاقة التي نشأت بين علم اللغة) و(علم النفس) إلي اللغوي الأمريكي(بلومفيلد ١٨٨٧- ١٩٤٨م) الذي اعتمد في دراسته للغة علي معطيات علم النفس، وعلي هذا فقد ظهر مصطلح(علم اللغة النفسي) في الأربعينيات، واستقر في الخمسينيات من القرن الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية، وإن ظهرت الإرهاصات قبل ذلك، ويعد(سكنر) أبرز مؤسسي علم النفس السلوكي وأقواهم علي الإطلاق، وقد نشر كتابه(السلوك اللفظي)، الذي يعد أهم محاولة بذلت في سبيل دراسة التفاصيل الخاصة باكتساب اللغة في إطار نظرية التعلم السلوكية، وقد اختار(سكنر) تعبير(السلوك اللفظي) بدلا من(اللغة) أو (السلوك اللغوي)؛ لأنه يهتم بالمتكلم الفرد والمحصول اللفظي الخاص به [٢].

---

(١) علم اللغة الحديث، د: محمد حسن عبدالعزيز صـ٨٠.

(٢) ينظر: منهج البحث اللغوي، د: محمود سليمان ياقوت صـ١٦٦، ١٦٧، وعلم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته وقضاياه، د: جلال شمس الدين صـ١٠، وتطور علم اللغة منذ ١٩٧٠م، جرهارد هلبش، ترجمة: د/ سعيد حسن بحيري صـ٤٠٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

يتضح مما سبق أن هناك روابطًا مشتركة قوية بين علم النفس وعلم اللغة، ولذا فإن بعض المؤلفين يستعملون مصطلح(علم النفس اللغوي) وبعضهم يستعمل مصطلح(علم اللغة النفسي) واستعمال أي مصطلح منهما يدل علي علاقة وثيقة بين علم اللغة وعلم النفس، بسبب العلاقة الوثيقة بين اللغة الإنسانية والنفس البشرية؛ إذ لا يطلق علي الكلام لغة إلا إذا أدي وظيفة نفسية قائمة علي التحليل والتصور وردود الفعل، كما أن اللغة لا يمكن دراستها بمعزل عن العوامل النفسية والعقلية والاجتماعية مثلما أنه لا تغفل الجوانب الشكلية من اللغة، غير أن طبيعة الدراسات اللغوية النفسية وتوجهاتها في الوقت الحاضر تقود إلي الأخذ بمصطلح (علم اللغة النفسي) وترجيحه علي مصطلح(علم النفس اللغوي)؛ نتيجة اهتمام اللغويين المعاصرين بدراسة اللغة دراسة نفسية [١]؛ لأن علم النفس حين يدرس اللغة لأسباب لغوية فإنه يسمي(علم اللغة النفسي) أما حين يدرس اللغة لأسباب نفسية فإنه يسمي(علم النفس اللغوي) [٢].

تعريف علم اللغة النفسي: ورد في المصادر اللغوية النفسية عدد من التعريفات لهذ العلم، منها أنه: فرع من فروع علم اللغة يدرس العلاقة بين السلوك اللغوي والعمليات النفسية التي يعتقد أنها تفسر ذلك السلوك [٣]. وقيل هو: العلم الذي يدرس اللغة في إطار علاقتها بعلم النفس [٤].

موضوع علم اللغة النفسي: من الواضح أن موضوع علم اللغة النفسي هو اللغة نفسها، أي دراسة اللغة والبحث فيها وصفًا وتحليلًا واكتسابًا وتعلمًا وتعليمًا، وهذه الدراسة تنطلق من أن وظيفة اللغوي هي الغوص في أعماق اللغة والبحث في جوانبها النفسية المعرفية بدلًا من الاقتصار علي وصفها وصفًا شكليًا ينحصر في الأصوات والصرف والنحو والدلالة [٥].

---

(١) ينظر: علم اللغة النفسي، د: عبدالعزيز إبراهيم العصيلي صـ٣٢، ٣٣.
(٢) ينظر: علم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته وقضاياه، د: جلال شمس الدين صـ١١.
(٣) ينظر: علم اللغة النفسي، د: عبدالعزيز إبراهيم العصيلي صـ٢٦.
(٤) ينظر: منهج البحث اللغوي، د: محمود سليمان ياقوت صـ١٧٠.
(٥) ينظر: علم اللغة النفسي، د: عبدالعزيز إبراهيم العصيلي صـ٣٤.

مجالات علم اللغة النفسي: يبرز أهمها فيما يلي-

١- كيف يتعلم الطفل لغته الأم. ٢- فهم اللغة سواء كانت منطوقة أو مكتوبة. ٣- دراسة الأخطاء في الأداء النحوي. ٤-التعرف علي أسباب الاضطرابات اللغوية. ٥- إصدار الكلام، بدءًا بالعمليات النفسية التي تسبق الكلام، ومرورًا بإنتاج الكلام نفسه فسيولوجيًا، ثم مروره بالوسط الفيزيائي الناقل له، حتي وصوله إلي أذن السامع، وما يرتبط بهذه العمليات من مراحل، وما يحدث من مشكلات في نقل الرسالة. ٦- العلاقة بين اللغة وعلم الأمراض النفسية الذي يندرج تحته ما يسمي بالتخلف العقلي) الذي يؤدي إلي بعض العيوب اللغوية حين الكلام، وأسباب تلك العيوب، وكيفية علاجها. وهناك موضوعات أخري كثيرة يمكن أن تندرج تحت هذا العلم [١]. ومما ينبغي التنبيه عليه أن علم اللغة النفسي يدرس هذه الجوانب اللغوية دراسة لغوية نفسية، من حيث علاقتها باكتساب اللغة، واستعمالها في الفهم والإنتاج، ويدع التفصيل الوصفي النظري لعلم اللغة العام بفروعه المعروفة، وهي علم الأصوات، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم الدلالة، وعلم المعجم [٢].

(١) ينظر: منهج البحث اللغوي، د: محمود سليمان ياقوت صـ١٧١، وعلم اللغة النفسي، د: عبدالعزيز العصيلي صـ٣٥، وفصول في علم اللغة العام، د: عمرو خاطر وهدان صـ١٣٨.

(٢) ينظر: علم اللغة النفسي، د: عبدالعزيز إبراهيم العصيلي صـ٥٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثانياً: مصطلح الجدال الماهية والأنواع والأحكام والمظاهر

الإنسان مدني بطبعه، يحتاج إلي غيره، وغيره يحتاج إليه، وأثناء ذلك قد يحدث بينهما تصادم ونقاش حول بعض الأمور التي لم يتفقوا عليها- خاصة إذا لم يكن هناك اتفاق في الدين والفكر والبيئة- بل وحتي في الأمور المتفق عليها قد يحتاج أحدهما إلي توضيح بعض أجزائها مما قد يحدث معه جدال، وعلي هذا فالجدال غريزة في الإنسان، به طبع وعليه نشأ، ومن هنا فالجدال ليس مذمومًا في ذاته- طالما كان الهدف الوصول إلي الحقيقة- ولكن علي الإنسان أن يضبط هذا الجدال حتي لا يتحول إلي مشاغبة، ومن ثم إلي مكابرة ومعاندة فيؤدي به ذلك إلي التهلكة، وقد جاء الجدل في القرآن علي مراتب نلحظها في أسلوبه، وقد راعى فيها الأسلوب القرآني نفس المجادَل ومخاطبته مخاطبة نفسية لتكون أقرب إلي القبول؛ لأن جدال المتشدد يورث الهزيمة، ويوقع النفوس في أشد مما نهيت عنه؛ إذ يوردها المهالك.

تعريف الجدال في اللغة: يقول ابن فارس:" الجيمُ وَالدَّالُ وَاللَّامُ أَصْلٌ واحدٌ، وهو من باب استحكامِ الشَّيْءِ في اسْتِرسالٍ يكون فيه، وامْتِداد الخُصومة ومراجعة الكلام"(١).

وأصل الجدال مشتق من جَدَلْتُ الحبل: إذا أحكَمْت فَتْله، فكأن المتجادلين يَفْتِل كل واحد الآخر عن رأيه. وقيل: أصل الجدال: الصِّراع وإسقاط الإنسان صاحِبَه على الجَدالَة، أي الأرض الصلبة، كأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه، والجَدَل: اللَّدَد في الخُصومة والقدرة عليها، ورَجُلٌ جَدِلٌ إذا كان أقوى في الخصام (٢).

تعريف الجدال في الاصطلاح: لا يخرج الجدال اصطلاحًا عن المعنى اللغوي، فهو مقارعة حجة كلامية بأخري بقصد أن يزحزح كل متكلم الطرف

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٤٣٣ (ج د ل).
(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور ١١/ ١٠٥ (ج د ل)، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٢/٣٧٣ وما بعدها، وتاج العروس للزَّبيدي ٢٨/ ١٩٤(ج د ل).

الآخر عن مذهبه علي سبيل شدة المخاصمة والقدرة على النقاش، ولذا عرفه الراغب بأنه:" المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة "(١). وعرفه الطاهر بن عاشور فقال:" القدرة على الخصام والحُجّة فيه، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيك، ومنه سُمِّي علم قواعد المناظرة والاحتجاج في الفقه علم الجدل "(٢). ومنه أخذ الجدل المنطقي: الذي هو القياس المؤلَّف من المشهورات أو المُسلَّمات، والغرض منه إلزامُ الخَصْم وإفهام من هو قاصر عن إدراك مُقَدِّمات البرهان (٣).

الفرق بين المجادلة والمناظرة والمحاجة:

١- الفرق بين المجادلة والمناظرة: من وجهين: الأول: أن المجادلة لا تكون إلا بين مبطلين أو مبطل ومحق، والمناظرة بين محقين. الثاني: أن المجادلة فتل الشخص عن مذهبه محقاً أو مبطلاً، والمناظرة التوصل إلى الحق في أي من الجهتين كان (٤).

٢- الفرق بين المجادلة والمحاجة: من وجهين،الأول: أن المحاجة استدلال الخصم على دعوى يعتقد حقيقتها، والمجادلة أعم من ذلك. الثاني: أن المجادلة أقوى من المحاجة؛ لأن الجدل هو الشد، مأخوذ من قولك: جدلت الحبل إذا شددت فتله (٥).

أنواع الجدال وأحكامه التكليفية: ورد لفظ جدل بمشتقاته في القرآن في تسع وعشرين مرة، ولم يرد في موضع المدح إلا في أربعة مواضع (٦)، وقد عاب بعض العلماء الجدال واحتجوا بوجوه، أحدها: أنه تعالى قال:﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى صـ ١٨٩.
(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٥/ ١٩٤.
(٣) ينظر: تاج العروس للزَّبيدي ٢٨/ ١٩٤ (ج د ل).
(٤) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٥/ ١٤٣.
(٥) ينظر: تفسير ابن عرفة ١/ ٣٦٨.
(٦) الموضع الأول:﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ (هود:٣٢) والثاني:﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾(النحل:١٢٥) والثالث:﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦)، والرابع:﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ (المجادلة:١).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

(البقرة:١٩٧) وهذا يقتضي نفي جميع أنواع الجدال، ولو كان الجدال في الدِّين طاعة وسبيلًا إلى معرفة الله- تعالى- لما نهى عنه في الحج، وثانيها: قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾[الزُّخْرُفِ] عابهم بكونهم من أهل الجدل، وذلك يدل على أن الجدل مذموم، وثالثها: قوله:﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الْأَنْفَالِ:٤٦] نهي عن المنازعة والجدال يتضمنها، كما أن الجدال مدعاة للخصومة، ومجلبة للبغضاء والضغينة، ويقسي القلب، وهو سبب للقطيعة، والمسلم إذا كان كثير المجادلة كان مذمومًا عند الناس.

وأما جمهور المتكلمين فإنهم قالوا: الجدال في الدين طاعة عظيمة، واحتجوا بقوله تعالى:﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥] وبقوله تعالى حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح-عليه السلام-﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾[هُودٍ:٣٢] ومعلوم أنه ما كان ذلك الجدال إلا لتقرير أصول الدِّين، كما أن الشرائع لا تتضح غالبًا إلا بعد الجدال.

إذا ثبت هذا فلا بد من التوفيق بين هذه النصوص، فنحمل الجدل المذموم على الجدل في تقرير الباطل أو بغير علم، وطلب المال والجاه، أو قُصد به الملاحاة وتأجيج نار العداوة في النفوس، وإيغار القلوب، والتعنت والرياء وطلب الرئاسة، كما قال تعالي:﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزُّخْرُفِ: ٥٨] وقال: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ (غافر:٥) ونحمل الجدل الممدوح على الجدل في تقرير الحق وإبطال الباطل، وقمع الكفر، ودعوة الخَلْق إلى سبيل الله، والذَّبّ عن دين الله تعالى، أو للتفقه والاجتهاد واستخراج الدلائل على المسائل؛ لأنه قد لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق، ودحض حجة الباطل.

وعلي هذا فالجدال نوعان: جدال في تقرير الحق، وجدال في تقرير الباطل، ولذا قال (ﷺ):[إِنَّ جِدَالًا فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ] (١)، فقوله:(إن جدالًا) على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدالٍ وجدال (٢).

وقد ذكر العلماء أن الجدال تارةً يكون حرامًا إن استلزم مفسدة، كجدال أهل البدع، وكان القصد منه إبطال الحق، وتارةً مندوبًا أو واجبًا إن استلزم مصلحة بحسب الأحوال، وفي حالة الوجوب قد يكون فرض عينٍ إذا تعيَّن على شخص ما الدفاع عن الحق، وقد يكون فَرْض كفاية بأن يكون في الأمة من يدافع عن الحق، وذلك إذا كان مع كافر ويطمع في الجدال أن يهتدي، وتارةً مباحًا إن لم يستلزمهما، وقد يكون الجدل مكروهًا إذا كان القصد منه مجرد الظهور والغلبة في الخصومة(٣).

مظاهر الجدال في القرآن: ورد الجدال فى القرآن على وجوه مختلفة:

الأول: مجادلة الإنسان عامة.

الثاني: مجادلة الرسل.

الثالث: مجادلة المؤمنين.

الرّابع: مجادلة الكفار.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٢/ ٤٧٦-ح/ ٧٥٠٨ (مسند: أبي هريرة).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٧/ ٤٨٥ وما بعدها، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ٣/ ٤٠٥، ومجلة مجمع الفقه الاسلامي ١١/ ٨٣٤.

(٣) ينظر: حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، للشيخ: علي الصعيدي ١/ ١٥٦، والموسوعة الفقهية الكويتية ١٥/ ١٢٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبحث الأول

أسلوب القرآن في التعبير عن جدل الإنسان في ضوء علم اللغة النفسي

الجدال- كما سبق- غريزة في الإنسان، به طبع وعليه نشأ، خاصة أنه معرّض لنزغات الشيطان ووسوسته في كل حال من أحواله الدينية والدنيوية، وقد تمر عليه أحوال يكون فيها متحيرًا مرتبكًا شاكًا تختلط عليه الشبهات متأثرًا فيها بغيره، ومن هنا كان التركيب النفسي للإنسان المنقول إليه وراثة، أو المكتسب عن طريق البيئة أو الثقافة أو التفاعل الاجتماعي من العوامل المؤدية لوجوده في النفس البشرية، ومن هنا جاء الأسلوب القرآني مصورًا لجداله راسمًا ملامحه بما يتوافق مع طبعه، ويتمثل هذا في الآيات الآتية -

١- قوله تعالي:﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾[النحل].

الجو النفسي لسباق الآية: يدور المحور العام لسورة النحل حول التذكير باليوم الآخر بدءً من أولها﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ ثم أخذت السورة في تعداد بعض النعم التي أنعم بها على الإنسان، فسخر له كل ما يساعده على الحياة حتى يتفكر في أن لهذا الكون خالقًا، وأنه راجع إليه للمحاسبة، ومضى نسق السورة علي هذا النحو إلى أن عرضت الآية التي نحن بصددها.

التحليل النفسي للآية: في هذه الآية نبّه الله على ما يتعرض له كل إنسان- مؤمن أو كافر- يوم القيامة من محاولة الدفاع والجدال عن نفسه، والجدال هنا بمعنى الاعتذار عن أقواله وأفعاله التي صدرت منه، إنه اليوم الذي تأتي فيه كل نفس تجادل عن نفسها وذاتها، كلٌ يقول: نفسي نفسي، فتصدرت الآية بالظرف (يوم) المشعر بالتنبيه والتذكير بيوم القيامة علي سبيل التهديد والتخويف من الله لكل نفس؛ لكي يحثها علي النظر في حالها وتصحيحه وتزكية أعمالها ومحاسبة نفسها قبل بلوغ الآجال، وما يتبع ذلك من التحذير من هذا اليوم الذي أُجل لوقت لا يعلمه إلا الله، والذي ينتظره الجميع من آمن ومن كفر علي السواء، ذلك اليوم الذي سلطان فيه لأحد من الملوك والرؤساء، وتفرد الله وحده بالملك والعزة والسلطان.

والمراد بالإتيان في﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ الحضور والمعاينة والانكشاف التام وما يستلزم ذلك من عدم وجود مهرب أو ملجأ من المسائلة المتحققة لا محالة، عندئذ تبدأ المجادلة.

وجاء قوله:﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بتنكير لفظ(نفس) ليصور عموم مجادلة كل نفس، فيجادل المؤمن والكافر، ويلمح من هذا التعبير صورة التضاد: التزاحم(الاجتماع) والافتراق في صورة نفسية إعجازية، فعلي الرغم من اجتماع الخلائق إلا أن كل نفس لا ترى أحدًا غيرها، ولا تهتم إلا بذاتها علي الرغم من معرفة بعضهم ببعض، يوم يفر المرء من كل من كان في الدنيا يهتم بأمره ويشغله حاله، ولذا قال:﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ يعني" ليس أحد يُحاجّ عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة "(١).

ومن هنا جاء التعبير بقوله:﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بدلًا من التعبير- مثلًا- بقوله كل النفوس إشعارًا بالذاتية في المجادلة، فكل نفس تدافع عن ذاتها جاهدة في خلاصها، لا يشغلها إلا شأنها بلا التفات منها إلي شفاعة غيرها؛ إذ لا تقبل نيابة أحد عن أحد في هذا الموقف من شدة الكرب، حتى تفر من أقرب الأقربين إليها، فهى رهينة بما كسبت من خير أو شر، فلا يكون معها ولي ولا شفيع، بل تكون هي المسئولة عما فعلت، وأعمالها محصية ثابتة. وفي التعبير بلفظ المضارع(تجادل) دلالة إيحائية علي استمرار المجادلة وتجددها،فالكل مشغول بنفسه، ليس له فراغ أو متسع إلى غيره، ولذا أظهر لفظ النفس في قوله تعالي:﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ فالنفس تحتج عن ذاتيتها فقط دون ما سواها مهما بلغت درجة قرابته منها ومهما كانت صلتها به. ثم يأتي ختام الآية ليصور المشهد المترتب على تلك المجادلة، حيث﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فتعطى وتثاب جزاء﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ واكتسبت من خير أو شر، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته جزاء وفاقًا لما قدّم﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ فلا ينقص أحد من ثواب الخير، ولا يزاد على جزاء الشر، ولا يتعرض أحد لظلم مهما قل.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٢٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والآية بهذه الدلالات النفسية من ألفاظها ووحداتها اللغوية تصور لنا لقطة سريعة ومشهدًا من واقع حياة الناس، يرونه بأعينهم ربما كل يوم، فالمشهد ليس غريبًا عليهم، فهو أشبه ما يكون بمحكمة عليا تقضى بين الناس، وهذا التصوير يماثل ما يكون يوم القيامة للحساب والجزاء، بأسلوب قصد به تصوير شدة الهول الأخروي، فالأوصاف والصور والمشاهد الأخروية الواردة في هذا المشهد هي في نطاق مألوف السامعين من مشاهد مجالس القضاء في الدنيا، حتى يكون لها تأثير في السامعين الذين لا يتأثرون إلا بما هو معروف ومجرب عندهم، ولا يفهمون إلا ما هو في نطاق معارفهم، والقائم على هذه المحكمة هو أحكم الحاكمين.

وهكذا استطاع القرآن الكريم بهذا الأسلوب أن ينفذ إلى أغوار النفس الإنسانية، فيرصد حركاتها وسكناتها، ويكشف عما يندس في مساربها من خواطر وتصورات، وما يزدحم في أعماقها من رؤى وخيالات، فتلمح وراء هذا الأسلوب قوة تصف الحقائق- خيرها وشرها- في عزة مَن لا ينفعه خير، واقتدار من لا يضره شر، وهذا- دائمًا- سمت القرآن الذي لا يشاركه فيه قسيم.

٢- قوله تعالي:﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[الكهف].

الجو النفسي لسباق الآية: تأتي هذه الآية في سياق إقامة الحجة علي الإنسان من خلال ضرب الله- تعالي- في القرآن للناس من الأمثال العديدة والمواعظ الحكيمة والتوجيهات الرشيدة التي يثْبُتُ بها الحق بطرق وأساليب متنوعة، وذلك بدءًا من قوله تعالي:﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾[البقرة] وفيما يخص سورة الكهف قد ضرب قبل هذه الآية مثلين للناس، فالآية عطف على الجمل السابقة التي ضُربت فيها أمثال من قوله:﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الْكَهْف:٣٢] وقوله:﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الْكَهْف:٤٥].

التحليل النفسي للآية: أشار الله في الآية إلي أنه قد صرّف للناس في هذا القرآن من كل مثل مما هم في حاجة إليه من أمور دينهم ودنياهم، وهذا مما يوجب

الانقياد لهذا القرآن، وعدم المنازعة فيه، فكل مثل فيه العظة والعبرة وما يفتح للعاقل الطريق إلى الحق، فكيف وهى أمثال كثيرة تلتقى مع كل عقل، وتتجاوب مع كل لب.

وتبدأ الآية الكريمة بالواو العاطفة علي ما تقدم من ضرب الله الأمثال للناس للتذكير، ثم اللام الموطئة للقسم مع حرف التحقيق(قد) المفيد لتحقق ظهور الدلائل والبراهين المتضمنة في القرآن، فالغاية من هذه الآية الشهادة من الله علي نفس الإنسان وإقراره بأن هذا القرآن فيه من الأمثال الكثيرة المتنوعة النافعة ما يرشده إلى طريق الحق والخير، متى عقل وتدبر ما فيه وإلا فلا عذر لمن لم يفهم.

وقوله تعالي:﴿صَرَّفْنَا﴾ يقتضي التنويع والتكرير، وهومن التصريف ومعناه التحويل من حال إلى حال، يقول الأزهري:" الصَّرْف: التَّقَلُّبُ والحِيلة... قال أبوعبيد: صَرْفُ الحَدِيث أَن يزِيد فِيهِ لِيُمِيلَ قلوبَ النَّاس إِلَيْهِ... وقال اللَّيْث: تصريفُ الرّياح: صَرْفُها من جهة إلى جهة، وكذلك تصريف السُّيُول والخيول والأمور والآيات "[1]. وتصريف الله للأمثال: الإتيان بها علي أحوال متعددة وصور شتى من بيان الأحكام والقصص والعبر، وما فيها من زجر وترغيب وترهيب.

ثم أشار الأسلوب القرآني إشارة تنديدية توبيخية بموقف الإنسان من هذه الأمثال، فبالرغم من كل هذا البيان القرآني الذي لم يترك وسيلة من وسائل إقناع الإنسان وهدايته إلى الحق والخير إلا وضمنها لا يزال هذا الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا ينيب لحق، ولا ينزجر لموعظة، ولذا كان قوله تعالي:﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ تعبير عن الطبع والسجية في جنس الإنسان، فهو بحسب جبلته وفطرته منذ نشأته أكثر الأشياء– إن فصَّلْتها واحدًا بعد واحدٍ– مكابرة وجدالًا في الدفاع عن رأيه بالباطل متلمسًا المعاذير التي يبرر بها تصرفاته إلا من عصم الله، وهذا يفهم من التعبير بالفعل(كان) الدال على اتصاف اسمها بخبرها اتصافًا

(١) تهذيب اللغة للأزهري ١٢/ ١١٤ (ص ر ف).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مُتمكنًا، للدلالة علي أن ذلك الوصف(الجدل) لازم له، قليل الانفكاك منه، وقد ذكر علماء النفس أن كل مخطيء يتلمس تبرير خطئه بما يسمونه (نظرية التبرير) (١).

وقيل: المراد بالإنسان هنا الكافر بدلالة السياق القبلي وهو قوله تعالي:﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ والسياق البعدي، وهو قوله تعالى:﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[الكهف: ٥٦]، ولذا قال ابن زيد، الجدل هنا:" خصومة القوم لأنبيائهم، وردهم عليهم ما جاءوا به "(٢). وقيل: الإنسان هنا النَّضر بن الحارث وجداله في القرآن. وقيل: ابن الزِّبَعْرَى. وقيل: أُبَيّ بن خلف، وكان جداله في البعث حين أتى بِعَظْم فَذَرَّهُ، فقال: أيقدر الله على إعادة هذا؟ وقيل: هي على العموم، وهذا أصح، ورجحه كثير من العلماء، ويؤيد هذا ما ثبت من حديث عليٍّ(رضي الله عنه)[أَنَّ النَّبِيّ(ﷺ) طَرَقَهُ وفاطمة لَيْلَة فقال: ألا تُصَلِّيَان؟ فقلت: يا رسول الله، أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ وَلَمْ يُرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا](٣). كما أن الجدل طبع الإنس وإن تفاوتوا في ذلك، فهو عام لا يلزم منه أن يكون مرتكبه كافرًا، وإنما مظنة الجدال التناظر بين الطرفين والاحتجاج بمتقابل المذهبين، وقد وصف الله الصحابة بذلك، فقال:﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ فسبب النزول لا يُنافي التفسير بالعموم؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد أسهم التعبير بالمصدر(جدلًا) لإفادته حصول الفعل غير مقترن بزمن، ومجيئ اسم التفضيل(أكثر) مضافًا إلي لفظ(شَيْء) الدال علي العموم تركيب لغوي قصد منه المبالغة في شدَّة جدل الإنسان وجُنُوحه إلى المماراةِ والنزاع حتى فيما تَرك الجدال في شأنه أحسن، بحيث إن شدة الوصف فيه تشبه تفوُّقه في الوصف

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري ٢/٧٢٩، والتفسير الوسيط للقرآن لمجموعة من العلماء ٥/٨٩٠.
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٥/ ٣٠٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٥٠-ح/١١٢٧(كتاب: التهجد، بَابُ تَحْرِيضِ النَّبِيِّ-ﷺ- عَلَى صَلَاةِ اللَّيْلِ) وينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٦/١٧٨، ومعالم التنزيل للبغوي ٣/٢٠٠.

على كل من يَعْرِض أنه موصوفٌ به [١]. ولذا نوسب التعبير عن الإنسان في هذا المقام بأنه ﴿شَيْءٍ﴾ إشعار لهذا الإنسان بأن من الواجب عليه أن يقلل من غروره وكبريائه، وأن يشعر بأنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة، بل إنه أضعفها، فعليه أن ينتفع بأمثال القرآن ومواعظه وهداياته، لا أن يجادل فيها بالباطل [٢].

وسبب كون الإنسان أكثر شيْءٍ جدلًا ما أوتيه من سعة الحيلة، وقوة المعارضة، واختلاف النزعات والأهواء، وقوة العزيمة، فيحاول أن يُدلّل على صحة أهوائه وخواطره بالحجة، فيقارع الحق بالمراوغة والمغالطة [٣].

فالآية تحتوي علي إشارة تنديدية بطبع الإنسان الجدلي، بالرغم من أن الله قد ضمّن القرآن أنواع الأمثال وقلّب فيه وجوه الكلام لتذكير الناس وإنذارهم والانتقال بهم إلى الحال الأعلى، ولكنه طبع الجدل الغالب في البشر يتحكم فيهم فيحول دون ارعوائهم وتذكرهم، فيلجأون إلى الجدل بالباطل ليبطلوا به الحق، ويتخذوا آيات الله هزؤا.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٥/ ٤٢، ٣٤٧.
(٢) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د: محمد سيد طنطاوي ٨/ ٥٤٠.
(٣) ينظر: تفسير المراغي ١٥/ ١٦٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبحث الثاني

أسلوب القرآن في التعبير عن جدل الرسل في ضوء علم اللغة النفسي

سبق القول أن الجدل غريزة في الإنسان، وهناك من البشر من لم يضبط هذه الغريزة فاتبع وسوسة الشيطان، واستقبل دعوات الرسل بالإنكار والعناد والمكابرة والمجادلة بالباطل للقضاء على الحق بعد وضوحه، دون استناد إلى أي دليل، فأوحى الله لرسله- بما حوت عليه قلوبهم من الرحمة والحلم- أن يجادلوا هؤلاء- بحرفتهم التي طبعهم عليها- بالتي هي أحسن، من خلال عرض ما اشتمل عليه القرآن من جميع أنواع البراهين، لرد باطلهم ودحض شبههم، مع الاحتياط في الحذر منهم حتي لا يحاول أحد إضلالهم عن وجه الحق، ومن هنا جاء الأسلوب القرآني مصورًا لجدالهم راسمًا صورته بما يتوافق مع طبعهم، ويتمثل هذا في الآيات الآتية:

١- قوله تعالي:﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء].

الجو النفسي لسباق الآية: الآيات متصلة بالمنافقين بدء من قوله:﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ ...﴾(النساء:٨٨) حيث شرح أحوال المنافقين، وأمر المسلمين بأخذ حذرهم منهم، فقال:﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ (النساء:٨٩) ثم عاد الأسلوب القرآني هنا إلى أحوال المنافقين، وذكر أنهم يحاولون أن يخونوا رسول الله(ﷺ) وأن يحملوه على أن يحكم بالباطل ويترك الحكم بالحق، فأخبر الله رسوله بخيانتهم، وأمره بأن لا يلتفت إلي قولهم.

وقد نزلت الآيات في تبرئة يهودي وإنصافه في أحنك الظروف، فاليهود يومئذ- ولا زالوا- ألد أعداء الإسلام، يتربصون بالرسول(ﷺ) ومن آمن معه

الدوائر، وفي الوقت نفسه أدانت الآيات الذين تآمروا على اتهام هذا اليهودي، وهم بيت من الأنصار- ناصروا رسول الله- في المدينة، فأنار الإسلام الدنيا بعدالته من خلال حماية حقوق الناس جميعًا؛ حيث صور لنا الأسلوب القرآني مشهدًا لم تعرف له البشرية نظيرًا، فيأمر الله رسوله(ﷺ) والمؤمنين أن يقضوا بين الناس بالحق دون محاباة لأحد، ولا إلحاق ظلم بأحد- ولو كان غير مسلم- من خلال إرساء الإسلام لقواعد الحكم، فلا يكون القاضي سببًا في أذى أحد حتي ولو خالفه في الدين أو القرابة أو الجنس أو العرق أو في أي شيء، وعليه فلا ينحاز إلى أحد الخصمين، ومن ثم فعليه أن يتحرى الدقة أثناء نظره في القضية شكلًا وموضوعًا، ولا تغرنه بلاغة الخصم ولحنه في القول، ويبذل في ذلك قصاري جهده، ولعلنا نستشف هذا من مطلع الآيات﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء] الذي يفوح بالعتاب والصرامة في التعامل، والغيرة على العدل.

سبب نزول الآيات: أن رجلًا من الأوس- يقال له طُعْمَة بن أُبَيْرِق من بني ظَفَر بن الحارث- سرق درعًا من جارٍ له يقال له قتادة بن النُّعمان، وكانت الدِّرع في جِراب فيه دقيقٌ، فجعل الدقيق ينتثر من خَرْقٍ في الجِراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق، ثم خبَّأها عند رجلٍ من اليهود يقال له زيد بن السَّمِين، فالتُمِست الدرع عند طُعمة فلم توجد عنده وحلف لهم والله ما أخذها، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إليَّ طعمة، فقالت بنو ظَفَر: انطلقوا بنا إلى رسول الله(ﷺ)، فكلَّموه في ذلك وسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحِبُنا وافتضح وبرئ اليهودي، فَهَمَّ الرسولُ(ﷺ) أن يفعل، وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهودي، وقيل: همّ أن يقطع يده حتى نزلت تسع آيات في هذه الحادثة بدء من قوله تعالي:﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وروى أن طعمة هرب إلى مكة وارتد، ونقب حائطًا ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله [١].

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن صـ١٨٣، ومعالم التنزيل ٦٩٨/١، والكشاف للزمخشري ٥٩٥/١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقوله:﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني القرآن ملتبسًا﴿بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ وعلمك وأوحى إليك بما توجبه نصوص القرآن، وبما يريه الله لك وينير قلبك به لإدراك الحق، فالرؤية هنا لها معنى خاص وهو النظر بنور الله في الأقضية التي يقضى فيها، فالقاضي لكي يكون قضاؤه عدلًا لابد من أمرين: أحدهما: قانون عادل هو الحق من كل نواحيه، وهو هنا الكتاب الكريم. والثاني: أن يكون فحصه للقضية ببصيرة نيرة، وقلب مشرق، وهذا يكون بنور الله، وهذا لا يأتي إلا إذا نظر القاضي فيما يُعرض عليه نظرة غير متحيزة، وهذا هو ما نهى الله عنه نبيه، والنهي لعموم أمته، ولذا قال:﴿وَلَا تَكُن﴾ بصيغة المضارعة، أي لا ينبغي لك لا في الحاضر ولا في العاجل أيها الرسول، وكذا سائر الأمة﴿لِّلۡخَآئِنِينَ﴾ يعني طعمة وقومه بخصوص السياق، أو كل من فعل فعلهم على سبيل العموم﴿خَصِيمًا ١٠٥﴾ مدافعًا ومعينًا [١]. ثم قال:﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ مما هممت به من معاقبة اليهودي، أو من جدالك عنه حين أبرأته من السرقة بسرعة دون تثبت، أو استغفر لأمتك المذنبين المتخاصمين بالباطل، وعلي هذا فالخطاب صورةٌ للنبي(ﷺ)، والمراد بنو أبيرقٍ هنا بخصوص السياق [٢].﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾ لمن طلبهما، ولعل السر في همّ الرسول(ﷺ) بالجدال عن طعمة هو حسن ظنه بالمسلم؛ لأن طعمة كان مظهرًا لإسلامه، فهو يغلب عليه الصدق، وذاك اليهودي يغلب عليه الكذب والخداع.

التحليل النفسي للآية: قوله تعالى:﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ الواو عاطفة على قوله﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ يعني إذا كان الأمر أنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ف(لا) وهى نافية للعموم، أي لا يتصور عقلًا أن(تُجَٰدِلۡ عَنِ) وهو لفظ عام يدخل فيه أصحاب النازلة دخولًا أوليًا، ويتقرر به توبيخ كل من جادل عن خائن، أي: ولا تخاصم ولا تدافع أيها الرسول، أو عام في كل مجادل، وعلى

(١) ينظر: زهرة التفاسير للشيخ أبي زهرة ٤/ ١٨٣٩.
(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٤/ ٥٧.

هذا فهو تشريع وجّه لكل مكلف، ومن ثم فالنهي عام﴿عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ ويظلمونها بالخيانة والسرقة، وعبر بقوله:(أَنفُسَهُمۡۚ)؛ لأن وبال ذلك عليهم، يعني طعمة، أو هو وقومه؛ لأنهم شهدوا له بالبراءة ونصروه، فكانوا شركاء له في الإثم، أو عام في كل خائن﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ صيغة مبالغة تقتضي تكرير الفعل؛ لأنه يتحمل إثمين: إثم الارتكاب، وإثم رمي الأبرياء ﴿أَثِيمًا ١٠٧﴾ يقصد الخيانة ويصر عليها.

فقد أكد الأسلوب القرآني نفي محبة الله لهؤلاء الذين دأبت نفوسهم الخيانة حتى أصبحوا لَا يعيشون إلا فيها بالجملة الاسمية المصدرة بحرف(إن) الدال على التوكيد، وهذه عقوبة أكبر من أي عقوبة.

وصور الأسلوب القرآني بعد مشهد الخيانة والإثم وعدم محبة الله لهؤلاء، مشهدًا آخر ينبئ عن خبث طويتهم، فهؤلاء في جفوة مستمرة بعداء عن الناس لا يألفون الناس ولا يحبونهم، وإذا لقوهم أظهروا غير ما يكتمون، فلا يشعرون برقابة الله على أعمالهم، يقول تعالي:﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ "اسْتَخْفَى مِنْهُ: اسْتَتَر وَتَوَارَى"(١). أي يستترون ويستحيون بالخيانة من الناس خوف الفضيحة، يعني طعمة وقومه، والناس لا يملكون لهم نفعًا ولا ضرًا ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ مطلع عليهم لا تخفي عليه خافية،" قال الضَّحاك: لما سرق الدرع اتخذ حفرةً في بيته وجعل الدرع تحت التُّراب، فنزلت﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾"(٢). وقوله:﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ﴾ "كلّ مَا فُكِرَ فِيهِ أَو خِيضَ فِيهِ بلَيْل، فَقَدْ بُيِّتَ، ويقال: هَذَا أَمرٌ دُبِّرَ بلَيْل وبُيِّتَ بلَيْل، بِمَعْنًى واحد "(٣). وزعم بعض الطائيين: أن التبييت في لغتهم التبديل، وقال أبو زيد: يُبَيِّتُونَ معناه: يؤلفون، ويحتمل أن تكون اللفظة مأخوذة من البيت، أي: يستسرون في تدبيرهم بالجدرات (٤). وقوله:﴿مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ

(١) لسان العرب لابن منظور ١٤/ ٢٣٥ (خ ف و).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٣٧٩.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ١٠١، وينظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٤/ ٢٣٨(ب ي ت).
(٤) ينظر: جامع البيان للطبري ٧/ ٤٧٢، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٢/ ١١٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ٱلْقَوْلِۚ﴾ وذلك أن قوم طُعْمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي(ﷺ) فإنه يسمع قول طعمة ويمينه؛ لأنه علي دينه، ولا يسمع من اليهودي؛ لأنه كافر، فلم يرض الله ذلك منهم[1]﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾هو على الوعيد، يحسبون أنه قد غاب أمرهم عن الله، وأنهم أفلتوا من العقاب، والحال أنه عالم بما يفعلون وسيحاسب عليه.

ثم يحسم الأسلوب القرآني القضية من أساسها ويعالجها معالجة نفسية، فالمسألة هنا ليست مجرد تبرئة شخص تآمر عليه بعض القوم ليوقعوه في فخ الاتهام، إن الأمر أكبر من ذلك؛ لأن القرآن حينما يعالج قضية يعالجها من باب أنها قضية كلية، فالقضية هنا هي إقامة ميزان العدل ومراقبة الله في السر والعلن، فيقول تعالي مخاطبًا قوم طعمة وكل من ينهج نهجهم﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يا قوم طعمة ويا من تتولّون الظالمين وتجادلون عن الخونة﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ نبيكم وهو هنا القاضي، والمراد كل قاضي﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي هبوا أنكم جادلتم عن طعمة وكل من سلك مسلكه في الدنيا وانتصرتم لهم عند من يحكم بالظاهر، وهبوا أن تلك الآيات لم تنزل علي الرسول(ﷺ) لتبرئة اليهودي﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ استفهام علي سبيل التوبيخ والتقريع، أي فمن يجادل عن طعمة وأمثاله في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ والمعني النفسي: من الذي يكون محاميًا أمام الله، ومانعًا لطعمة وأمثاله من بأس الله وعذابه إذا حل به فِي الآخرة.

والآية بهذه الدلالات النفسية المنبعثة من ألفاظها ووحداتها اللغوية أكدت نفي المجادلة عن كل خائن؛ لأن الله لا يحب كل من كانت هذه صفته، ثم حسمت القضية من أساسها وعالجتها نفسيًا من خلال مراقبة الله والخوف من عقابه.

٢- قوله تعالي:﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود].

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٢/ ١٠٢، ومعالم التنزيل للبغوي ١/ ٦٩٩.

الجو النفسي لسباق الآية: هذه الآية جزء من سورة هود التي افتتحت بالتنويه بشأن القرآن، ودعوة الناس إلى عبادة **الله** وحده، وجاءت بالأدلة علي أنه المستحق وحده للعبادة، ثم أخذ الأسلوب القرآني للسورة في تصوير حال بعض الأنبياء مع أقوامهم للعبرة والعظة، من خلال عرض صورًا من الماضي مشابهة للأحداث الجارية، فبدأ بقصة نوح-عليه السلام- مع قومه، فبعد أن دعاهم إلى عبادة الله وحده، بقوله:﴿إِنَّنِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦﴾ استقبل نوح جواب قومه ردًّا على دعوته بالطعن فيها من ثلاث جهات، الجهة الأولي:﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ هذه مقولة عامة الكفار لرسلهم تتضمن إنكارهم أن يبعث الله رسولًا من البشر فيكون مثلهم في الخلقة والجنس، ويفهم منها دلالة أخري نفسية وهي حقدهم علي الرسل، وأنهم إن لم يكن لهم خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغير ذلك، فكيف تبعث الرسل إليهم، وليس العكس، والجهة الثانية:﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ "الأَرْذَل: الدُّونُ من النَّاسِ فِي مَنْظَرِهِ وحَالاتِهِ، وقيل: هو الخَسِيس، أو الرَّدِيءُ من كُلِّ شَيْءٍ"(١). والمعني النفسي: ما اتبعك إلا الفقراء الضعفاء الموضوعون في أدنى درجات السلّم الاجتماعي، وهم أهل طاعة لكل متبوع، فليس في إيمانهم دليل علي صحة ما تدعوا إليه، فهم اتبعوك﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ ذكر علماء اللغة أنه قرأ بهمز وبغيره(٢)، فمن همزه جعله من بدأت، ومعناه أول الرأي، أي اتبعوك من أول وهلةٍ عن غير رويَّةٍ وتأمُّل، وَإذا فكروا لم يتبعوك، ومن لم يهمز جعله من بدا يبدو إذا ظهر، أي اتبعوك في ظاهر الرأي وباطنهم على خلاف ذلك وعلى موافقتنا، ويجوز أن يكون اتبعوك في ظاهر الرأي ولم يتدبّروا ما قلت، ولم يفكروا فيه (٣).

---

(١) تاج العروس للزبيدي ٢٩/ ٦٦(ر ذ ل).
(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسيّ. ٤/ ٣١٦
(٣) ينظر: تهذيب اللغة الأزهري ١٤/ ١٤٣(ب د ا)، والصحاح للجوهري ٦/ ٢٢٧٨(ب د ا).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وهذا الطعن إشارة منهم إلى مدخل من مداخل الريب النفسي في أمر نوح ودعوته، فالمستجيبين لنوح هم أراذل القوم، وليس لديهم شيء من الرياسة والسلطة يخسرونها ويخافون عليها من هذا الطارق الجديد إلا أن يكون سببًا في تغيّر أحوال فقرهم، فليس لديهم إلا الفقر يخسرونه، وحبذا لو خسروه.

والوجه الثالث:﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ النفي للاستغراق، أي لا نرى لك ولأتباعك أي فضل علينا لا في عقل ولا مال ولا ملك ولا شيء من عوارض الدنيا، ولا في رعاية مصالح القوم فنتبعك.

ثم جاء الرد من نوح علي ادعاءاتهم في رفق، فقال ردًا عن الطعن الأول:" حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة، ثم ذكر الطريق الدال على إمكانه، فقال:﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ من معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه، ثم إنه تعالى﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ والمراد بتلك الرحمة إما النبوة وإما المعجزة الدالة على النبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي صارت مَظِنَّةً مُشْتَبِهَةً مُلْتَبِسة في عقولكم "[1]. فلم تبصروها وأعرضتم عنها﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنوجبها عليكم﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ والدِّين لا يقبل بالإكراه، وفي هذا رد نفسي يلزمهم الحجة، إنه يقول لهم ما الفارق بين أن يبعث الله ملكًا وبين أن يبعث بشرًا ما دام هذا البشر قد منحه الله الحكمة ووهبه النبوة ودلائلها.

ثم أخذ في استكمال الرد عليهم فقال في الرد عن الطعن الثاني:﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ هذه مخاطبة نفسية، أي: أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالًا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرًا أو غنيًّا حتي تحكموا علي الفقراء بأنهم أراذل اتبعوني بادي الرأي، فأجري على هذه الطاعة الشَّاقّة على رب العالمين [2]. وقوله:﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٧/ ٣٣٨.
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٧/ ٣٣٩.

تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ تفيد أنهم جادلوه وطلبوا منه تصريحًا أو تلميحًا طرد الذين آمنوا وجعلوه شرطًا كاذبًا لإيمانهم، فرد عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة وسيخاصمونني وسيطلبون أخذ حقهم ممن طردهم، أو يلاقونه وهو عالم بحال إيمانهم إن كان بَادِيَ الرَّأْيِ أو لا ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ يعني بالبعث وفي جزاء الذين آمنوا، ثم أكد على عدم طردهم ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي﴾ ويمنعني﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه﴿إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم أخذ في رد الطعن الثالث وهو(وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ) فبين لهم " أنه تعالى أعطاهُ أنواعًا كثيرةً توجب فضله عليهم، ولذلك لم يَسْع في طلب الدنيا، وإنما يسعى في طلب الدين، والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل، فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه "[1]. فقال:﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فالنبوة التي وهبني الله إياها لا تجعلني أملك خزائنه فأصير بذلك من الأثرياء حتي تقولوا ما نري لكم علينا من فضل، كما لا أقول إني﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتى أصلَ به إلى ما أريد لنفسي أو لأتباعي﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشرًا مثلنا، ثم قال:﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: بما في قلوبهم من التصديق، فعلينا تسليم الأمر لله، وهذا رد من نوح للقوم على ادعائهم أنهم اتبعوه باديَ الرأي﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ إن طردتهم [2].

التحليل النفسي للآية: بعد أن ألجم نوح–عليه السلام– قومه الحجة، وظهر بطلان تلك الطعون في نبوته تهجموا عليه بكلمات الجفاء والضجر وأعلنوها صراحة﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يعني قد بالغت في مناقشتنا ومخاصمتنا ونازعتنا بكل الوسائل ومختلف الأساليب العقلية، وأكثرت من الحجاج والمجادلة كثرة مبالغ فيها، فلم تَدَع

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٧/ ٣٣٩.
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٧/ ٣٤٠، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٥٦٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

لنا حجة إلا دحضتها، حتي طال عمرك وأنت بين أظهرنا وسئمنا من جدالك في دعوتك في التوحيد والنبوة، ولم يبق عندنا شيء نقوله حتي تصدّعت رؤوسنا، وانسدت أبواب الحيل فأعفنا من جدلك هذا فقد ضقنا بك ذرعًا وضقت بنا ذرعًا، فلن نؤمن لك مهما كان عندك من حجج.

ولعل مما يمتاز به أسلوب القرآن أنه حينما يمثل مشهد العناد لقوم نوح إنما يمثله في مشهد تصويري واحد دائم متجسد في أحداث التاريخ وعقلية الأقوام المتلاحقة؛ نتيجة التشابه في السلوك، ولذا كان أسلوب القرآن واحدًا أثناء عرضه لتلك الأحداث.

وهكذا يكون منطق الخائف عندما يأخذ من غلبة الحق شكل الاستهانة والتحدي، ويلبس العاجز ثوب القدرة، إنه يسقط فتختل أركانه وتضطرب خوالجه وأعضاؤه فتنطق بما لا تعقل، فهم لانطماس بصائرهم وكبرهم يطلبون العذاب، بل ويستعجلونه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

وبعد هذا الرد الذي يدل علي جهلهم وغاية كبرهم وعنادهم يأتي المشهد الأخير، لينتقل السياق النفسي سريعًا للختم عليهم وعلي ذراريهم بالكفر بعد أن استجار نوح بالله ودعا عليهم، فعن قتادة قوله:﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ "وذلك حين دعا عليهم نوح قال:﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾"(١). ثم أمره الله بصنع السفينة، وفي أثناء صنعها كانوا يسخرون منه إلي أن جاء أمر الله بالعذاب الذي طلبوه نتيجة جدالهم الشديد لنوح﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ الذي جعل علامة إهلاكهم﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾فحل بهم الغرق من كل جانب، ففتحت أبواب السماء بالماء، وتفجرت ينابيع الأرض وتعاظمت المياه، وعلا الموج أكناف الأرض، وارتفع فوق

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٤.

الجبال كما قال تعالي: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ إلي أن انتهي المشهد﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولعلك عندما ترن في أذنك تلك الجمل(وَفَارَ التَّنُّورُ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ، وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ) فإنك تحس بمدي الفجيعة التي أصابت القوم؛ حيث جمع الله لهم بين أقصى عقوبتين: الإغراق والإحراق، من خلال فوران التنور، وفي تلك الأمواج المتلاطمة التي علت الجبال، وفي مشهد البلع بجرسه ودلالته، وكذا في مشهد قلع السماء عن الماء الذي يعطي إيحاء أنها قد أجبرت علي ذلك، ولذا لم ينقطع الماء مرة واحدة بل غيض ونقص.

٣- قوله تعالي:﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود].

الجو النفسي لسباق الآية: الآية حلقة من سلسلة طويلة في قصص الأنبياء وأممهم جريًا على عادة الأسلوب القرآني في إيراد القصص للتذكير والتمثيل والإنذار، حيث تتبع فيها القرآن خط سير التاريخ، فبدأ بنوح-عليه السلام- ثم هود-عليه السلام- ثم صالح-عليه السلام- وهنا يأخذ طرفًا من قصة إبراهيم-عليه السلام- ويلم بها وصولًا إلى لوط-عليه السلام- للتذكير والتمثيل والإنذار؛ لأن" إبراهيم ابن خالة لوط "(١)، ولهذا خولف في أسلوب القصة عن سابقاتها، فلم يقل وأرسلنا، وعلي هذا فالآية متصلة بسياق السورة العام، قال تعالي:﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ " الرسل هنا الملائكة... وكانت الملائكة جُرْدًا مُرْدًا على غايةٍ من الحُسن "(٢). ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ إلي الطعام كما هي عادة الضيف﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فتحركت دواعي الشك والخوف في نفسه ﴿قَالُوا﴾ حين رأوا علامات الخوف بادية عليه﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٦/ ١٧٨.
(٢) السابق ٦/ ١٧٨، ١٧٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ لأنه علي خلاف العادة ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾.

التحليل النفسي للآية: بعد انتهاء المحاورة بين الملائكة وإبراهيم وزوجته قال تعالي:﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي الفزع النفسي الذي لم يأخذ وقتًا طويلًا كما تدل عليه فاء التعقيب﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب بعد سن اليأس﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ أي يكلم رسل الله- وهم الملائكة- ويناقشهم ويكثر من ذلك، كما يدل عليه التعبير بالمضارع الذي يشير إلى تكرر المجادلة واستمرارها مع تصوير الحال، وكان يسألهم في نجاة قوم لوط في محاولة لصرفهم عن تعجيل العذاب بهم، وكان يريد إمهالهم عسي أن يتوبوا إلي الله، ولكن أُنكر على إبراهيم أن يقف هذا الموقف مجادلًا عن قوم قد بلغوا من السوء ما أنكرته الأرض والسماء عليهم.

ومجادلة إبراهيم(عليه السلام) للملائكة قد سجلها القرآن في سياق آيات أخري: أنه لما سمع قولهم:﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ قال: أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، قال: فعشرون؟ قالوا: لا، ثم قال: فعشرة، فخمسة؟ قالوا لا، قال: فواحد؟ قالوا: لا، فعند ذلك﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ (١).

وقال أهل المعاني:" معنى(يُجَادِلُنَا) يسألنا ويكلمنا فيهم ويراجعنا في ذلك، إلا أنه استعير لفظ يجادل؛ لأنه كان يحرص في السؤال حرص المجادل "(٢).

وسبب مجادلة إبراهيم(عليه السلام) في قوم لوط هو فرط اشفاقه ورقة قلبه لاتصافه بصفة من صفات الله، وهي الحلم، فهو غير عجول على الانتقام﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾.

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٢/ ٥٢٠، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٧ وما بعدها، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢٢٧/٤، وفتح القدير للشوكاني ٥٨٠٩/٢.

(٢) التفسير البسيط للواحدي ١١/ ٤٩٠، ٤٩١.

وبعد طول المجادلة أنكروا عليه هذه المجادلة؛ لأن الأمر قد حسم وختم﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ الجدال، ثم عللوا ذلك مؤكدين بقولهم:﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ بهلاكهم، فلن ينفعهم جدالك، وأكدوا ذلك- أيضًا- بقولهم:﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ ثابت لا يرد ولا يدفع بأي وجه من الوجوه من أي أحد كائنًا من كان، وحينما جاء الأمر من الأعلى بالإعراض عن هذا الجدال أمسك لسانه وابتلع ما كان يجرى على شفتيه من كلمات، ليأتي مشهد السكون انتظارًا للمشهد الأخير المنتظر بإهلاك قوم لوط، وبسرعة ينتقل الأسلوب القرآني لعرض هذا المشهد، فتذهب الملائكة إلي لوط-عليه السلام-﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ لم يكد يتحمل لوط-عليه السلام- مشهد الأضياف الذي جاء مباغتا وأثار في نفسه خوفًا، فساءه مجيئهم وضاق ذرعه حتي لم يتحمله في نفسه بل أعلن صراحة بأن اليوم نفسه عصيب شديد الوقع على النفس، كل هذا العبوس الذي ظهر علي وجهه حتي فلتات لسانه تصوير بديع لنفاد حيلته وعجزه؛ لعلمه بفعل القوم، وهذا المشهد المتوقع المخزي سيوقعه في فضيحة، ويخلق مجالًا للصراع غير المتكافئ بينه وبين قومه، وما توقعه لوط حدث بالفعل﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ ولعلك حين تقرأ ما ذكره العلماء في معني الإهراع[1]، تدرك قيمة الفاجعة النفسية التي خالجت نفس لوط-عليه السلام- إنها ثورة كبيرة وعاصفة شديدة أحاطت بالبيت من كل جوانبه، بل وتسرع إسراع من لا يملك نفسه كمن عنده حمي فتخرج الأصوات من المخرج المعتاد بلا وعي استعدادًا لما يأملونه، فتتسابق لاقتحام وتحطيم الباب حتي لا يفلت هذا الصيد الثمين﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ يأتون الفاحشة التي عبر عنها القرآن في موضع آخر﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ

(١) الهَرَع والهُراع والإهْراع: مشي في اضطراب وسرعة، وقيل: هو شدَّة السَّوْق، وسُرْعة العَدْو، وأُهْرِعَ الرجلُ: إذا كانَ يُرْعَد من سرعةٍ أَو خوفٍ أَو حرصٍ أَو غضب، أَو ضعف كالحُمَّى، وفي التنزيل: وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ؛ قَال أَبو عبيدة: يُسْتَحَثّون إليه كأَنه يحثّ بعضهم بعضًا. قَال أَبو العباس: الإهْراع: إسراع في طُمأْنينةٍ، ثم قيل له: إسراع في فزعٍ، ينظر: لسان العرب ٨/ ٣٦٩(ه ر ع)، وتاج العروس ٢٢/ ٣٩١(ه ر ع).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ (الأعراف:٨١) جهارا وفى صورة جماعية كما قال تعالي﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾(العنكبوت:٢٩) حتي صار عادة مألوفة عندهم دون استحياء أو حرج، إنه الخزي والعار، ولذا عبر القرآن عنها بلفظ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ للدلالة على أنه منكر غليظ مركّب، وأنه ليس سيئة بل هو سيئات، وليس منكرًا بل هو منكرات، وفى قوله تعالي:﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ محاولة لإصلاح قلب الوضع الذي حدث منهم بتحريك قلوبهم الميتة وتغيير فطرتهم الشاذة وتبديل الخبيث بالطيب﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ يحاول اللجوء إلى نخوتهم ومروءتهم، ولكن مثل هذا الصنف لا يسمع عن هذا، وإذا بلوط –عليه السلام– يتلقى فجيعة أخري بردهم عليه﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ حاجة ووطر﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ فلا داعي للف والدوران، والعجيب أنهم قد عبروا عن عدم رغبتهم في بنات قوم لوط، بقولهم﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ فالحق عندهم في إتيان الرجال، وماذا يفعل لوط–عليه السلام– وحده أمام هذا العدد المهول الذي جاء مسرعًا مهتزًا مرتعدًا من شدة الشهوة الجامحة الفاسدة يبغي الفاحشة بضيوفه، فأحسَّ بضعفه فقال مستيئسًا:﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ "جماعة أقوى بها عليكم﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ أو أنضم إلى عشيرة تنصرني، وشيعة تمنعني "[1]، وهنا تنزل عدالة السماء لتفتح للوط الركن الشديد يأوي إليه، فتنزل على القوم مصارع الهلاك وصواعقها ومشاهد الدمار المروع في لحظات باغتة﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة إشفاقًا عليه عندما شاهدوا الموقف﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ ثم يأتي المشهد الأخير﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ مشهد مروع للتدمير الكامل، أي قلبناهم وقلبنا قراهم بكل ما عليها رأسا على عقب، فانهد العالي وصار سافلا، فخسف الله بهم وبديارهم وابتلعتهم الأرض بكلّ معالم قراهم، قال مجاهد:" أخذ جبريل قوم لُوطٍ

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٢/ ٥٨٣.

من سَرْحهم ودُورهم، حَمَلَهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماءِ نباح كلابهم ثم أكفأهم "[١].

المشهد لم يكتمل بعد، بل يستكمل الأسلوب القرآني المشهد برجمهم من أعلى مكان (السماء) وينتقى لهم نوعًا خاصًا من الحجارة وقع عليه الاختيار الإلهي﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ غيثًا نازلًا من السماء ﴿حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ﴾

وفى قوله تعالى:﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدِۭ ٨٣﴾ تهديد لمشركى قريش، وتلويح بهذه الحجارة المرصودة لهلاك كل كافر.

وهكذا استطاع الأسلوب القرآني بدلالاته النفسية تصوير مجادلة إبراهيم- عليه السلام- للملائكة عن قوم لا يستحقون إلا مشهد الدمار والهلاك بسبب فعلهم القبيح.

٤- قال تعالي:﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾[النحل].

الجو النفسي لسباق النص: في الآيات التي قبل هذه الآية ذكر الله طريقة إبراهيم (عليه السلام) في التوحيد، وكان المشركون واليهود معترفين بحُسن طريقته مُقرِّين بوجوب الاقتداء به، وقد وصفه الله بصفات تدل علي عظيم فضله، وعلى براءته من الشرك والمشركين فقال:﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾ وبمقتضى هذه الصفات جاء الأمر الإلهي باقتداء رسول الله(عليه السلام) به، وليصير ذلك حاملًا لهؤلاء المشركين واليهود على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك، فقال:﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ وجاء قوله:﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ لإبطال دعوى أتباع الملل أنهم معتمدون عليه،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٢٩٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأن مللهم ونحلهم منه وإليه، مبينة أن إبراهيم لم يكن من المشركين، وفي هذا تعريض بشركهم [١].

التحليل النفسي للآية: لما أمر الله رسوله(ﷺ) باتِّباع إبراهيم(ﷺ) بيّن الشيء الذي أمره بمتابعته فيه، موضحًا الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله راسمًا هذا المنهج للدعاة من بعده؛ لأن الخطاب يندرج فيه كل من دعا إلي الله، قال تعالي: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي دينه الإسلام، وعبر بفعل الأمر للحض علي الدعوة ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ وهى الكلام الصواب القريب الواقع من النفس أجمل موقع. وقيل: الحكمة: الحجة، وعن ابن عباس: الحكمة: القرآن، وعنه: الفقه. وقيل: النبوة[٢].

وقوله:﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ عن ابن عباس: هي مواعظ القرآن بضرب الأمثال والوعد والوعيد مع خلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة، وقيل: هي القول اللين الرقيق من غير غلظة ولا تعنيف [٣]، ولذا وصفت بالحسن إشارة إلي أنه ينبغي أن تكون لينةً مقبولةً عند الناس، فتتلطف في خطاب من تعظه لتستقر في النفوس والقلوب، وتبلغ مبلغها من دواخل النفس البشرية.

وقوله تعالى:﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ هي المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة، فالرسول مطالب بأن يعرض دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، فإذا تقبّل المدعوّون ذلك من غير عناد أو جدال فذاك، وأما إن وجد من دعاة الباطل معارضة، واستطالة بالأذى والسفاهة، والالتجاء إلي الطرق الملتوية، فعليه أن يجتنب ذلك، وأن يلتزم في جداله معهم بالتي هي أحسن، وفيها أوجه: أحدها: يعني بالعفو، يقول مجاهد:" أعرض عن أَذَاهُمْ إِيَّاك "[٤]. الثاني: جادلهم بالقرآن. والثالث: جادلهم بـ(لا اله إلاّ الله) روي القولان عن ابن عباس. الرابع: غير فظٍّ ولا غليظ،

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٠/ ٢٨٣، والبحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٦٠٩.
(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي ٦/ ٥٩٥، والمحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٤٣٢.
(٣) ينظر: تفسير القران للسمعاني ٣/ ٢١٠، وزاد المسير ٢/ ٥٩٣، ونظم الدرر ١١/ ٢٧٩.
(٤) تفسير مجاهد صـ ٤٢٧.

وألن لهم جانبك، بأن توقظ القلوب ولا تسفه العقول. الخامس: أن ترشد الخلف ولا تذم السلف [١]، وقيل أنها خاصة بسياق السورة النفسي بأن تجادلهم بالذي يقرون على ما ينكرون، وهو ما ذكر:﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ...﴾[النحل:١٧] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ...﴾ [النحل:٧١] وقوله:﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا﴾ [النحل:٧٣] وقوله:﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا...﴾[النحل:٧٥] وقوله:﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ...﴾[النحل:٧٦] ونحو هذا [٢].

ولا شك أن مهمة الداعي إلي الله عسيرة شاقة، يحتاج معها إلى بصيرة نافذة تتدسس إلى خفايا النفس الإنسانية؛ لأن الداعي إلي الله طبيب يحمل الدواء إلى العقول والقلوب والأرواح، فكما أن أمراض الأجسام مختلفة، ووسائل علاجها مختلفة، فكذلك أمراض النفس متنوعة، ووسائل علاجها متباينة، فعليه أن يختار من الدواء ما يشفى العلة، ويذهب بالداء [٣]. ولذا أمر الله رسوله- وكذا كل داع- أن يدعو إلي سبيله بالحكمة لمن أرادها، وبالموعظة الحسنة لمن احتاجها، والجدال بالتي هي أحسن لمن جادل، فطرق دعوته(ﷺ) تفاوتت لتفاوت مراتب الناس.

وقوله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ هو تهديد للذين يجادلون بغير علم بغرض المراء والإعنات، أي فما عليك أيها الرسول إلا اتباع المنهج الذي بيناه لك، فأما ما وراء ذلك من حصول الهدى والضلال، والجزاء عليهما بما يستحقه كل فريق فموكل إلى الله تعالى وحده فقط؛ وقد أكد ذلك بحرف التوكيد(إن) وتكرار اسمه تعالى(رَبَّكَ هُوَ ... وَهُوَ).

والآية بهذه الدلالات النفسية حدّدت لرسول الله(ﷺ) وللدعاة من بعده منهج الدعوة إلي الله، وأنه تعالى هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين، وعليه فما على الداعي إلا التبليغ فقط، والحساب على الله.

---

(١) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٣/ ٢٢٠، وزاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٥٩٣.
(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي ٦/ ٥٩٥.
(٣) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٧/ ٣٩٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبحث الثالث

أسلوب القرآن في التعبير عن جدل المؤمنين في ضوء علم اللغة النفسي

بعد أن بيّن- تعالي- أن الجدل طبع الإنس وإن تفاوتوا في ذلك، غير أن التربية الدينية هي التي تضبط خلقه، وتقوّم فطرته، من هنا أمر الله المؤمنين- وخاصة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء- أن لا يكون الجدال طبع فيهم، وأن يستقوا من نهج الأنبياء بأن يكون جدالهم- إن اضطروا- بالتي هي أحسن، أو إذا رأوا في الجدال فائدة، فيكون جدالهم بالحق عن الحق، وعليهم أن يصبروا على المكاره في سبيل الانتصار للحق؛ لأن هذا هو الثمن الذي يؤدونه لما يجنون من ثمرات مباركة هي غذاء الأرواح، وزاد القلوب، وهى التي تلد الرجال، وتربىّ للإنسانية قادتها المصلحين، وقد جاء الأسلوب القرآني مصورًا جدل المؤمنين في الآيات الآتية:

١- قوله تعالي:﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾(البقرة).

الجو النفسي لسباق الآية: لما ذكر الله في الآية السابقة الحج والعمرة فقال:﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ﴾ وذكر فيها بعضًا من الأعمال المتعلقة بهما تشوفت النفس إلي معرفة الميقات الزماني لهما، فشرع يبين اختلافهما في الوقت، فذكر الميقات الزماني للحج، وما ينبغي أن يأخذ به الحاج نفسه من آداب خلال تلك الأيام من ترك الرفث والفسوق والجدال، فقال:﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ ...﴾ .

التحليل النفسي للآية: في هذه الآية نري مشهدًا من مشاهد تربية النفس المسلمة ففي أيام الحج تتلاقي طوائف من المسلمين من عدة جنسيات، وكل طائفة بل كل فرد له طابعه الخاص، إضافة إلي ما يلاقيه الحجاج من تعب خلال تلك الأيام، وقد يتحمل الإنسان فيها عبء غيره، وفي خلال ذلك قد تضيق نفسه ذرعًا، فجاء الأسلوب القرآني مراعيًا ظروف وعواطف البشر فحذرنا من بعض المخالفات التي قد تؤثر في علاقة المسلمين بعضهم ببعض، خاصة وأن من أهم أغراض الحج هو تهذيب وإصلاح نفوس الجماعة، ولذا بدأ الآية به فقال:﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ﴾

للاهتمام به، ثم خص هذه المنهيات، والسبب في تخصيصها أن الإنسان به أربع قوى: شهوانية بهيمية، وغضبية سَبُعية، ووهمية شيطانية تبعث مع مساعدة القوتين الأخريين على المنازعة في كل شيء، وعقلية ملكية؛ وكان المقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاث؛ لأن منشأ الشرور محصور فيها [١]، فقال دالاً عليها وناهيًا عنها مرتبة﴿فَلَا رَفَثَ﴾ "الرَّفَثُ مُحَرَّكة: الجماع وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته من التَّقْبِيل والمُغَازَلَة ونحوهما مما يكون في حالة الجِماع، وهو أيضًا الفُحْش من القول- كَالرَّفُوث بالضَّم- وكلام النساء "[٢]. وقوله:﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ ذكر العلماء أن الفسوق عام في العصيان والترك لأمر الله والخروج عن طريق الحق، وقيل: الفسوق الخروج عن الدِّين، وكذلك الميل إلى المعصية، وهو يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير[٣]. وقوله:﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾" إشارة إلى القوة الوهمية التي تحمل الإنسان على الجدال في ذات الله، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأسمائه، وهي الباعثة للإنسان على منازعة الناس وممارتهم، والمخاصمة معهم في كل شيء"[٤].

وقد ذكر العلماء عدة تأويلات في الجدال هنا: أحدها: الجدال أن تماري صاحبك حتى تغضبه، وهذا قول ابن عباس. الثاني: هو السباب، وهو قول ابن عمر. والثالث: أنه المراء فيمن هو أبرُّهم حجًّا، وهذا قول محمد بن كعب، حيث قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمني قال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم، وقال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم. والرابع: أنه اختلاف كان يقع بينهم في اليوم الذي يكون فيه حجهم، فبعضهم يقول: الحج اليوم، ويقول بعضهم: الحج غدًا، فنهوا عن ذلك. والخامس: أراد به ما كان عليه أهل الجاهلية من الاختلاف في أمر الحج، حيث كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون، كلهم يدعي أن موقفه موقف إبراهيم، وأنه المصيب فيه، حتى كان بعضهم يقف بعرفة، وبعضهم بالمزدلفة، وكان يحج بعضهم

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٣/ ١٣٩.
(٢) تاج العروس للزبيدي ٥/ ٢٦٣ (ر ف ث).
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٥/ ٣١٧، ولسان العرب لابن منظور ١٠/ ٣٠٨ (ف س ق)، والبحر المحيط لابي حيان ٢/ ٢٨٠، وتاج العروس ٢٦/ ٣٠٢ (ف س ق).
(٤) مفاتيح الغيب للرازي ٥/ ٣١٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

في ذي القعدة، وبعضهم في ذي الحجَّة، وكل يقول: ما فعلته فهو صواب، فقال:﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ أَي: استقر أمر الحج على ما فعله الرسول، فلا خلاف فيه من بعد (١).

ويبدو أن الجدال عام يشمل مضمون هذه الأقوال؛ إذ المراد قطع الجدال فِي مناسك الحج، ولذا آثر التعبير بالنفي لا بالنهي؛ للدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يقع، فـ(لا) النافية تعم وتنفي الجنس، وتفيد أنه لا يتصور– أصلًا – أن يكون هناك أي رفث أو فسوق أو جدال في الحج، وعلي هذا فالمراد من الجدال نفي كل قول يجعل اللسان غير نزه، وكل قول يؤدي إلى النزاع؛ لأن الجدال يؤدي إلى الخصام، فيكون الجدال أعظم الثلاثة خطرًا، لأنه يجمع ما في الرفث– من شهوة فرض الرأي– والفسوق– وما فيه من مخالفة أمر الله– فيكون قد اشتمل على كل القبائح.

وبعد أن نفي الأمور السلبية السابقة– ومنها الجدال– حث علي فعل ضدها، وتلك هي القوة الرابعة في الإنسان– التي سبقت الإشارة إليها– فقال:﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ عبر بالمضارع الدال علي التجدد(تفعلوا) ونكّر(خير) للحث علي فعل أي خير مهما قل في أي وقت﴿يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ ويجازي عليه بكل خير في الدنيا والآخرة ليكون هذا جزاء من ترك الرفث والفسوق والجدال واستبدل بها ضدها، فيستبدل مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البرّ والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة، وهذا من شأنه أن يمحو آثار الذنوب من النفوس، ويدخلها في حياة جديدة فيرجع إلي موطنه الذي جاء منه خارجًا من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

والآية بهذه الدلالات النفسية استطاعت أن تنفي عن الحاج الرفث والفسوق والجدال، وحثته علي فعل الخير؛ لأن الله عالم به ومحاسب عليه.

٢– قوله تعالي:﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾[الأنفال].

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٤٧٨/٣ وما بعدها، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم٣٤٨/١ وما بعدها، والنكت والعيون للماوردي ٢٥٩/١ وما بعدها، وتفسير القرآن للسمعاني ٢٠٠/١.

الجو النفسي لسباق الآية: حكت سورة الأنفال بعضًا من جدال بعض المؤمنين مع النبي(ﷺ) وذلك خلال غزوة بدر حين كان المسلمون في قلة من المال والسلاح والعدد، فبدأت بقوله تعالى:﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ وسبب نزول الآية ما روى أن أصحاب النبي(ﷺ) افترقوا يوم بدر فرقتين، فرقة تقاتل وتأسر وهم الشباب، وفرقة تحرس الرسول(ﷺ) وهم الشيوخ، ثم تنازعوا، فقالت الفرقة المقاتلة: الغنائم لنا؛ قاتلنا وأسرنا، وقال الآخرون: كنا ردءًا لكم، ونحرس الرسول (ﷺ)، فالغنيمة بيننا؛ فنزل قوله تعالى:﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ فقسم النبي(ﷺ) الأنفال بين الكل بالسوية [١]، حتي يمتنع التنازع ولا يبقى شيء يحيك في النفوس.

التحليل النفسي للآيات: تأتي الآيات التي نحن بصددها لتتصل بما قبلها في النسق والبيان والموضوع، إذ كلها في غزوة بدر، قال تعالي:﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

اختلف العلماء إلى ماذا ترجع كاف التشبيه في قوله:﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ والذي يلتئم به المعنى وبه قال الأكثرون على أن الجملة خبر مبتدأ محذوف، تقديره: حالهم في كراهة حكمنا بأن الأنفال لله تعالى كحالهم في حكمنا بإخراجك من المدينة بالحق للقاء المشركين، قال المبرد: تقديره: الأنفال لله وللرسول وإن كرهوا، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق للقاء المشركين وإن كرهوا. وقول الفراء والزّجاج قريب من هذا [٢]. وقال الفخر الرازي:" وهذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة هنا "[٣].

---

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي صـ٢٣٥، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٢٤٦.
(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٣، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٠٠، وتفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٢٤٩، ومعالم التنزيل للبغوي ٢/ ٢٦٩، وجامع البيان للإيجي ٢/٥.
(٣) مفاتيح الغيب للرازي ١٥/ ٤٥٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وذهب البعض أنه يمكن أن يكون قوله:﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ كلامًا مستأنفًا يراد به الكفار، أي: يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها، كأنما يساقون إلى الموت في الدعاء إلى الإيمان (١).

ويبدو لي أن الراجح هو كون الكلام راجع إلي أصحاب النبي(ﷺ)؛ إذ الكلام فيهم، وليس هنا ذكر للكفار، فالسياق القبلي(اللغوي) للآية هو قوله تعالي:﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ فأنت تري أنه وصفهم بالإيمان، وكذا السياق البعدي فيهم، وهو قوله تعالي:﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ وأيضًا سياق المقام – وهو سبب نزول الآية كما سيأتي– يؤكد هذا الرأي.

سبب نزول الآيات: أن النبي(ﷺ) بلغه أن عير قريش بقيادة أبي سفيان خرجت من الشام في أربعين رجلاً من تجار قريش، حتى إذا كانوا قريبًا من بدر، بلغ النبي(ﷺ) ذلك، فَنَدب أصحابَه إليها وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدد، فانْتَدب الناسَ فَخَفَّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله (ﷺ) يلقى حربًا، فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي(ﷺ) بعث إلى قريش يستنفرهم، فخرجت قريش، ونزل جبريل فأخبر النبي(ﷺ) بخروج المشركين من مكة إلى عيرهم، وخرج المسلمون لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه، لا يرونها إلا غنيمة لهم، لا يظنون أن يكون كبير قتالٍ إذا رأوهم، فلما علم أبو سفيان بقرب رسول الله(ﷺ) أخذ طريق الساحل وأبعد وفات ولم يبق إلا لقاء أهل مكة، وأشار بعض الكفار على بعض بالانصراف، وقالوا: عيرنا قد نجت فلننصرف، فحرّش أبو جهل وألقي العداوة حتى كان أمر الوقعة، ونزل جبريل وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشًا، فاستشار النبيُّ(ﷺ) أصحابه، وقال لهم: إن الله يعدكم إحدى الطائفتين: إما العير، وإما النصر والغنيمة، فما ترون؟ فشقّ ذلك على بعضهم، وقالوا: يا رسول الله، هلا كنت أخبرتنا أنه يكون ثمّ قتالًا فنخرج معنا سلاحنا وقسينا وفرسنا، إنما خرجنا نريد العير، وأشاروا عليه بل نسير إلى العير وكرهوا القتال، ثم أعاد النبي(ﷺ) المشورة: فأشاروا عليه بالعير، فتغير وجه رسول الله(ﷺ)، فقام

(١) ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٣/ ١١٥.

عند غضب رسول الله(ﷺ) أبو بكر وعمر- رضي الله عنهما- فأحسنا الكلام وأمالاه إلى المضيّ إلى العدوّ، ثم قام المقدادُ بنُ عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، فقال له رسول الله(ﷺ) خيرًا ودعا له بخيرٍ، ثم قال رسول الله(ﷺ): أشيروا عليَّ أيها الناس، وإنما يريدُ الأنصار، فلما قال ذلك قال له سعدُ بْنُ معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فإنا قد آمنَّا بك وشهدنا أن ما جئتنا به هو الحق، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ولعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عَيْنُك، فَسِرْ بنا على بركة الله، فَسُرَّ رسول الله(ﷺ) بقول سعد ونشَّطَه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظرُ إلى مصارع القوم، ويَضَعُ يَدَهُ على الأرض هاهنا وهاهنا، قال أنس: فما ماط أحدٌ عن موضع يد رسول الله(ﷺ)[1].

يتضح مما سبق أن الأسلوب القرآني في قوله تعالي:﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝﴾ يصور لنا تصويرًا بديعًا المشهد النفسي لكراهة بعض المؤمنين للقتال ولقاء العدو، حتي لكأن هذه الكراهة قد بدت آثارها واضحة علي وجوههم.

وينبغي أن يعلم أن تلك الكراهية كانت لأسباب: أحدُها: قِلَّةُ العدد. وثانيها: أنهم كانوا رَجَّالة. وروي أنه ما كان فيهم إلا فارسان وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر، وكان المشركون في نحو ألف رجل. وثالثها: قِلَّة السلاح [2]. وعلي هذا فالكراهة هنا كراهة اختيار لا مخالفة لأمر الله؛ لأنه لما لم يكن معهم أسباب القتال كرهوه.

ثم يصور الأسلوب القرآني الكراهة في مشهد أكثر حدة من السابق، قال تعالي: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ يراجعونك ويخاصمونك في القتال، فهم يريدون العير، ورسول الله يريد ذات الشوكة، وعبر بالمضارع دلالة علي شدة المجادلة وتجددها

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ١٠٠ وما بعدها، وبحر العلوم للسمرقندي ٦/٢، وجامع البيان للطبري ١١/ ٤١، ومعالم التنزيل للبغوي ٣٢٨/٣ وما بعدها، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي صـ١٠٦.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٥/ ٤٥٧ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٢٧٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وإصرارهم عليها، ولذا جاء بعدها بفي الظرفية التي تدل على إحاطة الظرف بالمظروف، ثم جاء بـ(ال) التعريفية في(الحق) دلالة على أنه حق واحد وظاهر﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنك أمرت به وأنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به، أو بعدما تبين لهم صدقك في الوعد الذي وعدهم الله لهم أنهم ينصرون أينما توجهوا(١). ولا شك أن قوله:﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ فيه إنكار عظيم لمجادلتهم؛ لأن من جادل في شيءٍ لم يتضح كان أخَفّ عتبًا، أما من نازع في أمر واضح فهو جديرٌ باللَّوم والإنكار (٢).

فالمسلمون عندما نظروا إلي أدواتهم مقارنة بأدوات المشركين–عددًا وعدة– رأوا أن الحرب تعنى بالنسبة لهم الفناء والاستئصال، فاضطربت قلوب بعضهم واختلفوا، ولهذا جاء قوله تعالى:﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾ كاشفًا عن تلك الحالة النفسية التي استولت على بعض المؤمنين الذين وجدوا أمر القتال ثقيلًا، كأنما تمثلت لهم مصارعهم، وشهدوا الموت عيانًا، والمعني النفسي للآية: أي كأنهم لفرط جزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى قتال العدو غير منجزين له، كحال من يُجَرُّون إلى القتل بالعنف ويساقون إلى الموت المتيقن سوقًا ودفعًا لا مهرب منه، كأنه متجسم أمامهم وهم ينظرون إليه بأعينهم مشاهدين لأسبابه، ناظرين إلى موجباته جازمين به (٣)، ولم يدر بخلدهم– مع قلة عددهم وعدتهم، وكونهم رَجّالة– أن هذه الأسباب العادية كثيرًا ما تتخلف، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والمنطق الإيماني يستدعي أنه ما دام الله قد وعد رسوله(ﷺ) بإحدى الطائفتين أن يُقبِل المؤمنون علي النفير بعد فوت العير، وذلك ما حكاه الله بعد هذه الآية: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ الطائفة الأولي: فرقة أبو سفيان والعير(التي لا قتال فيها ولا سلاح معها)، والطائفة الأخرى: فرقة المشركين الذين خرجوا مدججين بالسلاح من مكة﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ أي

(١) ينظر: تفسير مقاتل ١٠١/٢، وجامع البيان ٣٩/١١، وتأويلات أهل السنة ٥/ ١٥٦.
(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٢٧٦.
(٣) ينظر: التفسير القرآني للقرآن ٥٦٩/٥، والتفسير الوسيط لمجموعة من العلماء ١٥٨٧/٣.

تودُّون الطائفة التي ليست فيها حرب ولا سلاح والمحملة بالغنائم تكون لكم دون طائفة المشركين المقاتلة المسلحين، يقول ابن منظور:" الشَّوْكة: شِدَّةُ البأس والحدُّ في السلاح... وشَوْكة الْقِتَال: شِدَّةُ بَأْسِه، وشَوْكة المُقاتل: شِدَّةُ بَأْسِه "(١).

ثم بين الله لهم العلة في قتالهم للمشركين ليثبتهم ويعالجهم معالجة نفسية من خوفهم فقال:﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وعبر بالمضارع في قوله: (ويريد، يحق) دلالة علي أنها إرادة مستمرة لإحقاق الحق في أي وقت، والمعني: أي يظهر الحق ويعليه بما أنزل من القرآن، أو بأنه من الله من دون وجود الأسباب منهم، ففي غلبة المؤمنين مع ضعف أبدانهم وقلة عددهم وقصور أسباب الحرب من السلاح والعدة وغير ذلك، وقوة أبدان المشركين وكثرة عددهم وعدتهم آية عظيمة، فأراد أن يظهر الحق بالآية، ويحتمل أن يكون المؤمنون الذين يعملون على إحقاق الحق ويقاتلون في سبيله هم أنفسهم كلمات الله، وفى هذا إعلاء لقدر للمؤمنين، بحيث كانوا هم كلمات الله وجنده، بهم يحق الحق ويبطل الباطل (٢)، وقوله:﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ وعبر بالمضارع هنا-أيضًا- دلالة علي استمرار إرادة قطع دابر الكفار، أي: يستأصلهم عن آخرهم، وأكد هذا بقوله:﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يثبت الْحق وهو الإسلام، ويفني الباطل وهو الشرك﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ المشركون، وقد هلك أكابرهم وعصابة الكفر المستهزئين في مكة في تلك الغزوة.

ثم يأتي المشهد الختامي وهو مشهد النهاية ووقت الحرب الذي يصوره الأسلوب القرآني بتنزل الملائكة لتثبيت قلوب الطائفة المؤمنة الضعيفة- القوية بالله- ليتحقق النصر ويظهر الحق ويتحقق الوعد﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾

(١) لسان العرب لابن منظور ١٠/ ٤٥٤ (ش و ك).
(٢) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي ٢/٧، وتأويلات أهل السنة للماتريدي ٦/ ٧٥، والتفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب ٥/ ٥٧٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وبهذه الدلالات النفسية المنبعثة من ألفاظ الآيات ووحداتها اللغوية يكون قد صور الأسلوب القرآني مجادلة المؤمنين في القتال وكراهتهم له، ومعالجة الله لهذا الأمر من خلال توضيح الحكمة من القتال، منتهيًا بتأييد الله للمؤمنين بإمدادهم بالملائكة.

٣- قوله تعالي:﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾[العنكبوت].

الجو النفسي لسباق الآية: الآية السابقة لهذه الآية أمرت الرسول(ﷺ) أن يتلو ما يوحى إليه من الكتاب﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وأن يقيم الصلاة بحدودها، متممًا لأركانها وشروطها﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ﴾، والصلاة الكاملة بهذه الطريقة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر فيستنير قلبه، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير وتنعدم رغبته في الشر، ثم أمره بذكر الله﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾، ثم ذكر ثمرة ما ينتج عن الصلاة الكاملة والذكر وهو الخلق الجميل فوصّى به، فقال:﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

التحليل النفسي للآية : قبل البدء في تحليل الآية اختلف من جهة كونها محكمة أم منسوخة علي قولين- الأول: عن قتادة: هذه الآية منسوخة بآية السيف، حيث لم يكن يومئذٍ أمر بقتالهم، ثم نسخ ذلك بقوله:﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف(١).

والثاني:" أنها ثابتة الحكم، وهو مذهب ابن زيد"(٢)، وهو الرأي الراجح؛ لأنه لا معنى لمن قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال؛ لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر،

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٢٥٦.
(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٣/ ٤١٠.

ولا دلالة على صحته من فطرة عقل، ولا يجوز أن يحكم على حكم الله في كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل [١]. وعلي هذا فالآية مُحْكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدِّين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أقرب إلي تأليف قلبه.

قوله تعالي:﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ النهي عام بدليل التعبير بالمضارع الدال على التجدد ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اختلف في المراد بهم هنا، فقيل: مؤمنو أهل الكتاب الباقون على دينهم، ممن لم يصرحوا بأن لله ولدًا أو شريكًا أو يده مغلولة أو غير ذلك مما لا يليق به، وقيل من آمن بِمُحَمَّد (ﷺ) من أهل الكتاب كعبد الله ابن سلامٍ ومن آمن معه من نصارى نجران، ومعنى النهي عن المجادلة معهم بعد إيمانهم، هو أنهم كانوا يخبرون عن أشياء في كتبهم لم يعلمها المؤمنون، فنهى عن مجادلتهم فيها، فلعلها صحيحة، وقيل: هم الذين أدوا الجزية ولم يعلنوا عليكم الحرب [٢].

وعلي هذا فأهل الكتاب هنا هم المعتدلون في معتقداتهم، البعيدون عن الشرك وإثبات الولد والتثليث وأدوا الجزية، وهؤلاء يؤمنون بالله وبكتابهم ونبيهم وباليوم الآخر، فليس بيننا وبينهم إلا الإيمان بمحمد مع عيسى أو موسى–عليهم الصلاة والسلام– وهؤلاء لا يحتاجون– بعون الله– إلا إلى نقاش بسيط وجدال بالتي هي أحسن.

وفائدة التعبير بأداة الاستثناء في قوله:﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ دلالة على أنه لا توجد طريقة للمجادلة إلا التي هي أحسن، فهي بيان للموقف الذي يأخذه المؤمنون من أهل الكتاب فيما يكون بينهم من مواقف تثار فيها بينهم قضايا تتصل بالدين، وهو أن يعرض المسلمون حقائق الإسلام كما حملتها آيات الله، بمنطق الناصح المرشد، بحيث يختارون لجدالهم معهم طريقة مطبوعة بطابع الرفق واللين، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، فيقابلوا الخشونة باللين، والشغب بالنصح على وجه لا يدل على الضعف،

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٨/ ٤٢٠.
(٢) ينظر: تفسير مقاتل ٣٨٥/٣، وتفسير السمعاني ١٨٤/٤، والجامع لأحكام القران ٣٥٠/١٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ولا يؤدى إلى الدّنيّة [١]، وبذلك ينصرون دينهم، ويجنون ثمرة الدعوة كما قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت].

واختلف في معني قوله:﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ فعن ابن عباس قال: هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله). وعن مجاهد قال: إن قالوا شرًّا فقولوا خيرًا. وروي عن مجاهد أيضًا: أنها الكفُّ عنهم إذا بذلوا الجزية، فان أبوا قوتلوا. وقيل: إنها القرآن والملاطفة في الدّعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه. وعن سفيان في الآية قال:(الَّتِي هِيَ أحسن) قولوا﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [٢].

وهكذا ينبغي أن يكون الجدال ابتداء مع أهل الكتاب، فإن هم قابلوا الحُسنى بضدها انتقل الحكم إلى الاستثناء في قوله:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [٣]. وهذا استثناء من الحكم العام في الدعوة إلى سبيل الله، وقد اختلف في المراد بالمستثنى منه(الذين ظلموا منهم) تبعًا لاختلافهم في المستثنى، فقيل: يراد به من بقي على كفره وشركه منهم، وحرفوا في الكتب، وصرحوا بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة وعزير ابن الله أو يده مغلولة أو هو فقير تبارك وتعالى، أو نحو هذا، فهم بذلك ضاهوا المشركين في القول المُنكر فهم الظالمون؛ لأن الشرك ظُلْمٌ عظيمٌ، فيستعمل معهم الغلظة في القول، ويُجادَلُون بالأخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم، ويُنتقل معهم من الجدال إلى الجِلَاد، ويقابلوا بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم لعلهم يتوبون إلى رشدهم، فهؤلاء قال في حقهم﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ قال مجاهد: يقول: فَانْتَصِرُوا مِنْهُمْ [٤]. وقيل: يراد بهم

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٧/ ٤٢، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١١/ ٤٤٣، والتيسير في أحاديث التفسير لمحمد المكي الناصري ٥/ ١٠.
(٢) ينظر: تفسير مجاهد صـ ٥٣٥، وزاد المسير ٣/ ٤٠٩، والدر المنثور ٦/ ٤٦٨ وما بعدها.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/ ٦ وما بعدها.
(٤) ينظر: تفسير مجاهد صـ ٥٣٦، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٥/ ٦٣، والجامع لأحكام القران للقرطبي ١٣/ ٣٥٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٢٥٦.

الذين نصبوا الحرب، وأبَوا أن يؤدُّوا الجزية، أو آذَوْا مُحَمَّدًا(ﷺ)، فهؤلاء قال في حقهم﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ يقول: جاهِدُوهُم بالسيف حتى يُسْلِموا أو يُعطوا الجزية(١).

ويبدو لي أن الرأي الأول هو الراجح؛ لأن الإجماع وقع على أن السورة مكية نزلت قبل الإذن بقتال المشركين (٢).

وقوله تعالي:﴿وَقُولُوٓاْ﴾ يعني لظلمة أهل الكتاب، وعن ابن مجاهد: من لم يَقُل من هذا شيئًا من أهل الكتاب، أي: لم يَقُل مع الله إله أو له نِدٌّ أو شريك (٣)،﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾. وهذه الآية أصل في آداب المناظرة وهي تتضمن مثالًا تطبيقيًا من أساليب المجادلة بالحسنى أرشدنا إليه القرآن، والمعني: لتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم من القرآن وما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، شريطة أن لا يكون مبدلًا ولا مؤولًا، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ وهذه القضية- وهى الإيمان بإله واحد، وهو الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب- لا يجوز الاختلاف فيها، ومن يختلف فيها فقد ناقض دعواه بأنه من أهل الكتاب.

والآية بهذه الدلالات النفسية المستفادة من وحداتها اللغوية والأسلوبية نهت المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وخاطبت أهل الكتاب مخاطبة نفسية عقلية، وأنه لم الاختلاف ما دام أن الإله واحد! وما دام أن كتبكم تذكر الرسول(ﷺ) الذي يأتي بعد رسولكم، فنحن قوم لم نفرق بين نبي ونبي، ولم نؤمن ببعض الكتب دون بعض، على أننا جميعًا نؤمن بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ونحن له مسلمون ومنقادون، فما

(١) ينظر: تفسير مجاهد صـ٥٣٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٣/ ٤٠٩.
(٢) ينظر: التفسير الوسيط لمجموعة من العلماء ٢/٨.
(٣) ينظر: تفسير يحيي بن سلام ٢/ ٦٣٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المانع أن تكونوا كذلك؟ وتؤمنوا بمحمد(ﷺ) على أنه خاتم الأنبياء، ورسالته ناسخة لكل الرسالات، وقد بشرت كتبكم بالقرآن وبمحمد(ﷺ) (١).

٤- قوله تعالي:﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾[المجادلة].

الجو النفسي للنص: في مطلع سورة المجادلة عالج الأسلوب القرآني قضية- من أساسها- معالجة نفسية، فأبطل عادة سيئة في الجاهلية- والتي كان فيها عدوان على حقوق المرأة- قد فشت في بعضهم من خلال معالجة تلك النفوس والعادات، خاصة مع بدأ عهد جديد من الاستنارة والإسلام، فكان الرجل الجاهلي إذا غضب من امرأته اعتبرها مثل أمه، فحرّم على نفسه مساسها كحرمة مساسه لأمه، وقال لها: أنت علي كظهر أمي، وبذلك تصبح علاقته الزوجية معها محرمة، وقد نزلت آيات الظهار في رجل معين قد ظاهر من امرأته، إلا أن الحكم عام.

سبب نزول الآيات: أن خولة بنت ثعلبة الأنصاري، كانت حسنة الجسم، فرآها زوجها- أوس بن الصامت الأنصاري- ساجدة في صلاتها، فنظر إلى عجزها، فلما انصرفت أرادها، فأبت عليه- وكان رجلًا فيه سرعة ولمم- فغضب وقال لها: أنت علي كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلّا قد حرمت عليّ، قالت: لا تقل ذلك، والله ما ذاك طلاق، دعني أسأل رسول الله(ﷺ). قال: سليه. فأتت النبي(ﷺ) وعائشة-رضي الله عنها- تغسل شقّ رأسه، فقالت: إن زوجي، يا رسول الله تزوجني وأنا شابة جميلة، ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وكبرت سنى، ووهن عظمي، جعلني عليه كظهر أمه، ثم ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه ينعشني؟ فقال رسول الله(ﷺ): حرمت عليه، فقالت: والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقًا، فقال رسول الله(ﷺ): حرمت عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت صحبتي ونَفَضَتْ له بطني. فقال رسول الله(ﷺ): ما أراك إلا وقد حرمت عليه، ولم أومر في شأنك بشيء، فجعلت تراجع رسول الله(ﷺ)، فإذا قال لها رسول الله (ﷺ): حرمت

(١) ينظر: التفسير الواضح، د: محمد محمود حجازي ٣/ ٣.

عليه، هتفت، وشكت، وبكت، وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدّة حالي، وإن لي صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء، وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك فرجي- وكان هذا أول ظهار في الإسلام- فقامت عائشة تغسل شقّ رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداك. فقالت عائشة: اقصري حديثك، أما ترين وجه رسول الله(ﷺ)، وكان رسول الله(ﷺ) إذا أنزل عليه الوحي أخذه مثل السُّبَات، فما بَرِحت حتى نزل جبريل-عليه السلام- بهذه الآيات، فلما قضى الوحي قال: ادعي زوجك، فجاء، فقرأ عليه ما نزل علي رسول الله(ﷺ):﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخرها، فقال رسول الله(ﷺ) لأوس: أعتق رقبة، فقال: مالي بذلك يدان، قال: فصم شهرين متتابعين، قال: إني إذا لم آكُل في اليوم مرتين كلَّ بصري، قال: فأطعم ستين مسكينًا، قال لا أجد إلا أن تُعينني منك بعونٍ وصِلة، فأعانه رسول الله(ﷺ) بخمسة عشر صاعًا حتى جمع الله له، وكانوا يرون أن عنده مثلها؛ وذلك لستين مسكينًا لكل مسكين نصف صاع [١]. وروى الحسن أنها قالت: يا رسول الله قد نسخ الله سنن الجاهلية، وإن زوجي ظاهر مني، فقال رسول الله(ﷺ): ما أوحي إليّ في هذا شيء، فقالت: يا رسول الله أوحي إليك في كل شيء وطوي عنك هذا؟ فقال: هو ما قلت لك، فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله، فأنزل الله الآيات [٢].

نجد أن القرآن الكريم خلال الحادثة الأولى للظهار في الإسلام خلق روحًا جديدة مغايرة لتلك التي كانت من ظلام الجاهلية، فنجد امرأة من عامة المسلمين تدافع وتجادل من جاء بالرسالة، لكنها- لقوة أعتقادها في الله- رأت في الإسلام استنارة من ذلك الظلام الحالك في الجاهلية، وهو هنا الخروج من ظهار الجاهلية وحكمه، هذا الظهار الذي لو مضى إلى غايته لبدّد شملها، وأفسد عليها حياتها،

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٢٥٧، والكشف والبيان للثعلبي ٩/ ٢٥٣، وأسباب نزول القرآن للواحدي صـ ٤٢٧ وما بعدها.
(٢) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٥/ ٤٨٧ وما بعدها.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأخرجها من هذا العشّ الذي يضمها ويضم صغارها، وهنا لم يخذلها الله، بل جاءها بالفرج من عنده في مشهد يهز الأفئدة يوحي برعاية الله للأسرة الصغيرة- المتمثل هنا في المرأة وأولادها- لكي يطمئنها ويشعرها برعايته لها في أدق أمورها وأصغر شؤونها.

والأسلوب القرآني يبدأ بـ﴿قَدْ﴾ الدالة علي تحقق الوقوع؛ لأن رسول الله(ﷺ) والمجادِلة- كما قال الزمخشري-" كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها "(١). ولعل هذا يفهم-أيضًا- من سبب نزول الآيات كما سبق. وقوله:(سَمِعَ ٱللَّهُ) ليس المراد منه مجرد العلم بسماع الله تعالى لشكاة هذه المرأة؛ لأنه متحقق في كل شيء، بل المراد مزيد مزية علي مجرد السمع، وهو إيجاد حل لتلك الشكاية وسرعة الإجابة، ولذا " كان حَمْزة يدغم الدال في السين من: قَدْ سَمِعَ "(٢)، دلالة علي القرب، فكأنه سماع تام وخاص لشكاية هذه المرأة وتطييب خاطرها وردّ اعتبارها إليها بعدما وجدت نفسها تكاد تضيع بيد زوجها الذي استخفّ بالميثاق الغليظ، وعرّضها وأولادها لهذا الضياع، ثم لم تجد عند الرسول(ﷺ) الحماية الكافية لردّ هذه السخافة؛ لأنه لم يكن بين يديه حكم من الله في شأن الظّهار.

وهذه المرأة التي ظاهر منها زوجها حدث منها شيئان: أحدهما: مجادلة الرسول(ﷺ) وهو المعبر عنها بقوله تعالي:﴿قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي تحاجك وتخاصمك وتراجعك فيما وقع بينها وبين زوجها، وما صدر منه من الظهار.

وفى هذه المجادلة ما يكشف عن أن هذه المرأة أنكرت هذا الظهار في شريعة هذا الدين الذي آمنت به، ورأت فيه استنارة وآفاقا رحيبة مشرقة من التفكير السليم الذي يرفض الزور والمنكر من القول بما لا يتناسب مع هذه الشريعة التي احترمت الإنسان، وأعطته الحق الكامل في استعمال عقله، ومراجعة غيره فيما يعرض له من قضايا الحياة، ويبدو هذا واضحًا في موقف هذه المرأة من النبي ومراجعتها له،

(١) الكشاف للزمخشري ٤/ ٤٨٥.
(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٢٩/ ٤٧٨، وينظر: إتحاف فضلاء البشر للبَنَّاء صـ٥٣٥.

فلم ترضخ من أول وهلة لما قاله لها رسول اللهﷺ- وهو المبلغ عن الله شرائعه- فيما رآه في الموقف الذي بينها وبين زوجها، ولهذا سمّى القرآن موقفها هذا مجادلة، ولم ينكر عليها ذلك، بل جاءها بالرحمة والفضل العظيم، وهذا يلاحظ في نفس السياق من خلال إضافة المرأة إلى زوجها في قوله تعالي:﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ وفي هذا إشارة إلى أن المرأة لا زالت زوجًا لزوجها، لم تحرم عليه حرمة مؤبدة، بل ما زال هناك سبيل إلى وصل هذه العلاقة التي توشك أن تنقطع، وفي هذا إرهاص بأن الخبر المقبل من السماء هو خبر يحمل استجابة من الله لشكاة هذه المرأة [١]. وقوله تعالى:﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلي الشيء الثاني الذي حدث من المرأة، وهو إظهار ما بها من المكروه والوحدة [٢]. وقوله:﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ أي:" مراجعة الكلام في المخاطبة "[٣] . وفيه دلالة علي إصرار المرأة ومراجعتها لكلام الرسول(ﷺ) كما جاء في سبب النزول، وكما يفيده التعبير بالمضارع﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لمقالة المجادلة المشتكية﴿بَصِيرٌ ١﴾ بحالها بإيجاد التشريع الحكيم لحل هذه القضية.

وبعد أن استجاب الله لشكاة هذه المرأة عالج قضية الظهار معالجة نفسية، فالتفت التفاتًا تعنيفيًا إلى الذين يظاهرون من زوجاتهم، فذمّ الظهار والمظاهر ووضع الأمر في نصابه الحق، ووضح أن الظهار قائم على غير أصل، فقال:﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾ هذا هو بيان لحقيقة الظهار﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ بمجرد هذا القول الباطل، عبر ب(ما) النافية التي تنفي أن يتصور العقل أصلًا تشبيه الزوجات بالأمهات، ثم أكد هذا المعني بحرف التوكيد وأداة الاستثناء فقال تعالي:﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ أي إن هذا تشبيه باطل لتباين الحالين، فالله حرم الأم حرمة مؤبدة بخلاف الزوجة، فما أمهاتهم علي وجه الحقيقة إلا اللائي ولدنهم، وأما تشبيه الزوجة بالأم في تحريم وطئها فيه استخفاف بحرمة

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٤/ ٨١٢ وما بعدها.
(٢) ينظر: تاج العروس للزبيدي ٣٨/ ٣٨٨(ش ك و).
(٣) تهذيب اللغة للأزهري ٥/ ١٤٦(ح و ر).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الأمومة من خلال تعريض مقام الأمهات إلى تخيلات قبيحة تصاحب النطق بهذا الكلام، ولذا أمعن سبحانه في توبيخهم وبين إنهم من شدة افراطهم يخترعون من أنفسهم شيئًا لم يشرعه، فقال:﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾"المُنْكَر: ضد المعروف، وكل ما قَبَّحه الشَّرعُ وحرَّمه وكَرِهَه... المُنكَر: كلُّ فعل تَحْكُم العقولُ الصحيحةُ بقُبْحه، أَو تتوَقَّف فِي استِقْباحِه العقولُ فتحكُم الشريعةُ بقُبْحِه "(١). وهذا القول ينكره الشرع والعقل والطبع ولا تحتمله اللغة بمدلولها، وفضلًا عن كل ذلك فهو قول كاذب وباطل وهو المعبر عنه بـ:﴿وَزُورًا﴾ الزور:" الباطل والكذب "(٢). ثم عرض سبحانه التوبة لمن فعل هذا الفعل فقال:﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ لمن تاب وطلب العفو والمغفرة.

ومن تمام إعجاز الأسلوب القرآني أن الله بعد أن بين حقيقة الظهار، وكشف عن زيفه وبهتانه، ووضع حدًا لتعسف واستبداد الأزواج بزوجاتهم مما كان شائعًا في الجاهلية، عقب تعالي بإلحاق ذلك بالحكم المناسب له، فقال:﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ ثم ذكر حكم من عجز عن تحرير الرقبة فقال:﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤}.

يتضح مما سبق أن الأسلوب القرآني من خلال دلالاته النفسية عالج قضية الظهار معالجة نفسية من خلال تحريمه بعدة أمور: أولها: تكذيب المظاهر بقوله:﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ وتأكيد الخبر بـ(إن) فقال﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ والثاني: أنه سماه منكرًا، والثالث: أنه سماه زورًا، والرابع: قوله:﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ والعفو والمغفرة لا يقعان إلا عن ذنب، والخامس: ألزم المظاهر الكفارة حتى يرفع الظهار، بل وجعلها علي وجه الترتيب زيادة في تشديد العقوبة، وهذا يدل علي عظم الجرم.

(١) تاج العروس للزبيدي ١٤/ ٢٩٠ (ن ك ر).
(٢) تهذيب اللغة للأزهري ١٣/ ١٦٣ (ز و ر).

المبحث الرابع

أسلوب القرآن في التعبير عن جدل الكفار في ضوء علم اللغة النفسي

الجدل غريزة في الإنسان، والكفار لم يضبطوا هذا الجدل، حيث لجأوا إلى الجدل في آيات الله بقصد التشكيك فيها ومحاولة الدفاع عن الباطل، وتعاموا عن الأدلة الدالة على ضرورة الإيمان بالله، وقد ذم الله هذا الجدل الناتج عن التمسك بالهوى وتقليد الآباء بدون دليل، وبيّن لنا أنماطًا من جدلهم، وما آل إليه مصيرهم، ومن هنا جاء الأسلوب القرآني مصورًا لجدلهم راسمًا صورًا تتوافق مع طبعهم، حيث اعتمدوا في جدلهم علي كافة الأساليب القياسية المبنية علي مقدمات ونتائج، وكانت غايتهم إقامة الحجة- ولو بالباطل- علي المخاطب، وهذا يعني أنهم يعتمدون علي عنصر الاستدلال والمحاكمة العقلية الذي تأخذ فيه الألفاظ أبعادها الزمانية والمكانية بحسب واقعها العياني المرصود المستفاد من دلالاتها اللغوية، وهذا لا يعني حرصهم علي إقناع المخاطب وإحداث اليقين عنده، بل إن مهمتهم تشكيكه في قوله، ويتمثل هذا في الآيات الآتية:

١- قوله تعالي:﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾[الأنعام:٢٥].

الجو النفسي لسباق الآية: جاءت سورة الأنعام كلها لتواجه قضية الأصنام والوثنية والشرك بالله، بداية من أول السورة حينما أتي الله بالدلائل علي وجوده في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ وبالرغم من كل هذا ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ ثم ينتقل الأسلوب القرآني ليرينا موقف بعض هؤلاء العادلين بربهم، فهذه الآية استئنافية معطوفة علي سياق الآيات التي قبلها.

سبب نزول الآية: عن ابن عباس: اجتمع أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرةِ وَالنَّضْر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعةَ وَأُمَيَّة وأُبيّ ابنا خَلَفٍ والحارث بن عامر يستمعون القرآن، فقالوا للنَّضْر: يا أبا قُتَيْلَة ما يقول

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

محمد؟ قال: والذي جعلها بيته- يعنى الكعبة- ما أدري ما يقول، إلا أني أراه يُحرك لسانَه ويقول أساطير الأولين مثل ما كنت أُحَدِّثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون وأخبارها، وكان يجمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم وأسفنديار، فكان يُحدِّث قريشًا فيستمعون له، وقال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقًّا، فقال أبو جهل: حتى تفاخرنا واستوينا في المجد، واستوت بنا الركب، تزعمون أن منكم نبيًا يا بني عبد مناف، والله لا نقر بشيء من هذا، فنزلت [١].

التحليل النفسي للآية: قوله:﴿وَمِنْهُم﴾ يشير إلى" أحوال خاصة عقلائهم الذين يربأون بأنفسهم عن أن يقابلوا دعوة الرسول(ﷺ) بمثل ما يقابله به سفهاؤهم من الإعراض التام... ولكن هؤلاء العقلاء يتظاهرون بالحلم والأناة والإنصاف ويُخَيِّلون للدهماء أنهم قادرون على مجادلة الرسول(ﷺ) وإبطال حججه ثم ينهون الناس عن الإيمان "[٢]. وقوله:﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول حين تتلو القرآن، وفي التعبير بقوله:﴿يَسْتَمِعُ﴾ بدل (يسمع) دليل علي تعمدهم وحرصهم وانتباههم لكل حرف تقوله، وليتهم يفعلون ذلك بغرض الهداية والمعرفة، ولكن بقصد تصيد المطاعن علي القرآن، فهم يفتحون آذانهم- حتي لا يقال إنهم عجزوا عن رد هذا القرآن- في صورة من يضع أصابعه علي أذنيه، ويستمعون استماع استعلاء وانتقاد، لا استماع تدبر وانقياد، ولذا عوملوا بما يستحقون﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ "الأَكِنَّة: الأغطِيَة "[٣]. أي جعلنا على قلوبهم أغطية من الكبر والعجرفة ونعرة الجاهلية، فلم تعد تبلغ كلمات الله مواطن القبول والإحساس من قلوبهم﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ "الوَقْر: ثِقَلٌ في الأُذن... وقِيل: هو أن يَذْهَبَ السَّمْعُ كُلُّهُ "[٤]. وفائدة

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٩٥، ومعالم التنزيل للبغوي ٢/ ١١٧ وما بعدها، والبحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٤٦٨.
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٧/ ١٧٨ وما بعدها.
(٣) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ٦/ ٢١٨٨ (ك ن ن).
(٤) لسان العرب ٥/ ٢٨٩ (و ق ر).

التعبير بهذه الجملة إشارة إلي أن القرآن لم ينفذ إلي أسماعهم، فهو استماع لم يحدث فيهم أثرا، فلم يسمعوا إلا أصوات فقط، فعن قتادة قال:" يسمعونه بآذانهم ولا يعون منه شيئًا، كمثل البهيمة التي تسمع النداء ولا تدري ما يقال لها "(١).

وقوله:﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ﴾: أي إنهم بعد أن تعطلت أو عطلوا هم حاسة السمع التي هي أول أدوات الإدراك للنفس البشرية، عطلوا- أيضًا- حاسة البصر، فهم﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ من الآيات الدالة على صدق دعوة النبي(ﷺ)، وعبر بالمضارع الذي يفيد تجدد الحدث، وعبر بلفظ(كل) الذي يفيد العموم﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ﴾ عنادًا واستكبارًا، مع وضوح حجتها، فالأسلوب تصوير لشدة مكابرتهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان مهما رأوا من آيات الله.

وبلغ الكبر والعناد منهم مبلغًا أنهم لا يكتفون بعدم الإيمان، بل لا يأتون الرسول (ﷺ)، و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ فالأصل أنهم لا يأتون الرسول(ﷺ)، لكنهم إن أتوه جاءوا نافرين مجادلين مستهزءين منكرين الحق، فلا يتحركون إلا إلى الشرّ، ولا يأتون لطلب حق أو تعرّف على خير، وهذا غايةُ التكذيب ونهاية العناد (٢).

وقد اختلف فيما كانوا يجادلون فيه النبي(ﷺ) علي قولين: أحدهما: عن ابن عباسٍ قال: هم المشركون يجادلون في الذبيحة، يقولون: أمّا ما ذبحتم وقتلتم فتأكلون، وأمَّا ما قتل الله فلا تأكلون، وأنتم تتبعون أمر الله. والثاني: أنهم كانوا يجادلونه بما ذكره الله من قوله عنهم:﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (٣)، ولا شك أن الراجح هو الرأي الثاني؛ لأنه لا يوجد سبب لتخصيص المجادلة بقضية الذبح، والسياق يدل علي ترجيح هذا الرأي؛ لأن الجدال في الآية هو جدال في القرآن الذي يسمعونه من النبي(ﷺ)، فقد جاء السياق البعدي مفسرًا للمجادلة، قال تعالي:﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾، كما أن سبب نزول الآية يدل علي

(١) جامع البيان للطبري ٩/ ١٩٨.
(٢) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٤/ ١٥١.
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٦، والنكت والعيون للماوردي ٢/ ١٠٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ترجيح هذا الرأي، و(أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) الأباطيل والأَكاذيب والأحاديث لا نظام لها، وهى ما كان من واردات الخيالات والأوهام، وملفقات الأحاديث، ويَسْطر معناه: يُؤَلِّف ولا أصل له [١]، وعن أبي عبيدة مَعْمر بن الْمُثَنَّى قال: الإسطارة: لغة الخرافات والتُّرُّهات [٢].

هكذا كان حكم هؤلاء السفهاء، قاسوا القصص القرآني- وربما القرآن كله- علي القصص والخرافات والأباطيل التي سمعوها عن الأولين، وصولًا إلي أن القرآن غير معجز، وأنه من كلام البشر، هذا هو سلاحهم- الكبر والعناد- حين تسقط من أيديهم الحجج، فيلقون بكل كلام لا معني له، وهذا أيسر طريق للخروج من المأزق القرآني المعجز الذي يعرفون لغته، وهم أصحاب الملكة في البلاغة العربية.

ثم بين الأسلوب القرآني جناية أخرى لهؤلاء المشركين المجادلين فلم يكتفوا بتكذيبهم وإعراضهم عن الرسول وما جاء به، وإنما تجاوزا ذلك إلى وضع المعوقات في طريق انتشار دعوته، فيزجرون الناس عن اتباعه، ويبعدونهم عن الاستماع إليه، ليجمعوا بين الضلال والإضلال، قال تعالي:﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾ والضمير في قوله تعالى: ﴿عَنْهُ﴾ يرجع إلى النبي(ﷺ) وما جاء به من آيات. ولا شك أن فعلهم هذا لا ينسجم مع ادعائهم أن القرآن مجرد أسطورة، وأنه خرافات، فالأسطورة المختلقة والقصة المكذوبة خير للناس أن يسمعوها ويقفوا على ما فيها من اختلاق وكذب، ليعرضوا عنها إلى الأبد، أما أن يقولوا إنه أسطورة، ثم يتخذوا جميع الوسائل لضرب الحصار من حوله، ومنع الناس وإلهائهم عن سماعه، فذلك دليل ضمني على أنهم كانوا معترفين في قرارة أنفسهم بأن القرآن حق، وأنه يدخل الآذان من غير استئذان، فيستولي على المشاعر والقلوب، وأن التدبر فيه يفيد التطلع على إعجازه، فيخافوا تأثيره في قلوب الناس، لذلك ينهونهم عن سماعه [٣].

---

(١) ينظر: العين للخليل ٧/ ٢١٠ (س ط ر)، وتاج العروس للزبيدي ١٢/ ٢٥ (س ط ر).
(٢) ينظر: جامع البيان للطبري ٩/ ٢٠٠.
(٣) ينظر: التيسير في أحاديث التفسير لمحمد المكي الناصري ٢/ ١١٣، والتفسير الوسيط، د: محمد سيد طنطاوي ٥/ ٥٩.

وقوله تعالي:﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ هو رد علي فعلهم القبيح الذي فعلوه من الجدال والنهي والنأي عن الرسول وما جاء به، وأنهم لن ينالوا به مقصدهم، بل سيعود أشد الوبال والعذاب عليهم وحدهم، ولذا عبر بالفعل المضارع الدال علي استمرار الهلاك طالما يصرون علي فعلهم، وعبر بأداة القصر(إلا)، وأظهر لفظ(أَنفُسَهُمۡ) دلالة علي أن العذاب مقصور عليهم، وفي التعبير بقوله(وَمَا يَشۡعُرُونَ) دلالة علي أنهم قوم لا يعقلون، ووأنهم مستدرجون في خفاء من حيث لا يشعرون، وأنهم لن يفيقوا إلا حين يجدون أنفسهم يقفون علي النار كما يعبر عنه السياق البعدي، قال تعالي:﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾. هذه النقلة الإعجازية التي يصورها الأسلوب القرآني والتي يُردّ فيها هؤلاء المجادلين المكذبين الضالين المضلين إلي موقف الحساب والجزاء في الآخرة، وهذه النار التي يدفعون إليها دفعًا عنيفاً وهم أحياء في ديارهم وبين أهليهم، فبمجرد أن يقفوا علي النار وعلى حفير جهنم يضطربون ويفزعون ويتحسرون ويجأرون ويصدر عنهم نقيض ما كان يصدر عنهم في الدنيا، ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ إنهم لا يندمون علي ما صدر عنهم في الدنيا من مجادلات ومخالفات فيتمنوا الرجوع حتي يصدر منهم الإيمان، وإنما يجأرون لما رأوا ما آل إليه مصيرهم المخزي الفاضح الذي كانوا ينكرونه﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾.

وبعد المشهد السابق يأتي الأسلوب القرآني ليرسم مشهدًا أشد هولًا من سابقه، إنه مشهد العرض علي الجبار المتكبر، حيث يسألهم عما كانوا ينكرونه ويجادلون فيه﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ "وفى حسرة قاتلة، وفى أنفاس لاهثة مبهورة، وفى كلمات حزينة متقطعة دامية، تتحرك شفاههم بها في إعياء

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وتثاقل، يجيء منهم هذا الصوت الخفيض في أنين ذليل:﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾"[١]. لكن النهاية حسمت، وصدر الحكم من الجبار العادل﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ إنه التقلب في دار خلدهم، حيث ينتهي بهم المطاف إلى النار، يصلون سعيرها، ويذوقون عذابها.

٢- قوله تعالي:﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾[الأنعام:١٢١].

الجو النفسي لسباق الآية: سورة الأنعام- كما سبق- جاءت كلها لتواجه قضية الأصنام والشرك بالله وتنذر العادلين بربهم، ثم انتقل الأسلوب القرآني بعد ذلك- كما جاء في تحليل الآية السابقة- إلي أنهم قوم مجادلون بطبعهم، لا يأتون الرسول (ﷺ) إلا للمجادلة، ولذا حذر الله رسوله(ﷺ) من اتباعهم بقوله:﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ والْخَرْص والتخرص: الحكم على الشيء بلا علم والأخذ به بلا دليل، فأصْلُ الْخَرْص: التَّظَنِّي فيما لا يَستَيْقِنُه...ثم قيل للكذب: خَرْصٌ، لما يَدْخُلُه من الظُّنُون الكاذبة "[٢]. ثم جاء الأسلوب القرآني ليرتب علي ذلك أمر الرسول والمؤمنين بطاعة الله ومخالفة هؤلاء في مسألة الذبح، وإبطال شرائع شرعوها، فقال تعالي:﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ١١٩ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾.

(١) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٤/ ١٥٦.
(٢) تهذيب اللغة الأزهري ٧/ ٦١ (خ ر ص)، وينظر: التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٣٠١.

التحليل النفسي للآية: قوله:(ولا) الواو عاطفة علي قوله:(فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ) و(لا) ناهية، والتعبير بالمضارع(تأكلوا) دلالة علي استمرار النهي، وقدم لفظ الجلالة ومتعلقه علي الجار والمجرور(عليه) للعناية باسمه، ودلالة علي عظيم اسمه تعالى، وأثره في استحلال الأكل من المذبوح.

فالجملة نهي عن أكل أي طعام لم يذكر اسم الله عليه، ولذا قال:﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ﴾ أي الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، فهو خروج عن الحق والدين، ثم بين العلة في المجادلة فقال:﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عبر بإن المؤكدة، وجمع لفظ الشيطان إشارة إلي كثرتهم، ليشمل شياطين الإنس والجن، ففي المراد بالشياطين هاهنا قولان: أحدهما: أنهم شياطين الجن، قال ابن عباس: أوحت الشياطين إلى أوليائهم من الإنس: كيف تعبدون شيئًا لا تأكلون ما يقتل، وأنتم تأكلون ما قتلتم؟ فأنزل الله الآية. الثاني: أنهم شياطين الإنس، وهم المجوس، وذلك لأنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس، فكتبوا إلى أولياءهم من قريش- وكانت بينهم مكاتبة- أن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يتَّبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرامٌ، فوقع في أَنْفُس ناسٍ من المسلمين من ذلك شيء، فأنزل اللهُ الآية، قاله عكرمة، وروي أن المشركين قالوا: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ فقال: الله قتلها، قالوا: أفتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتله الكلب والصقر حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله الآية [(١)].

والمعني النفسي لقوله تعالي:﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ﴾ أي: وإن شياطين الإنس والجن ليوحون بزخرف القول غرورًا إلى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع الخفي ما يجادلونكم به من الشبهات في مسألة الذبح، والغرض من المجادلة هنا إبطال أحكام الإسلام في مسألة الذبح، ليثيروا بذلك جدلًا بين المؤمنين؛ ليشككوهم في أمر دينهم، ويثيروا الريب، وهذا من شأنه أن يضعف الإيمان بالحق، ويفتح الأبواب للباطل، وبهذا تضل الأفهام والعقول، ولذا قال محذرًا

(١) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي ٢/٧٢، ومفاتيح الغيب للرازي ١٣/ ١٣٢، ومعالم التنزيل للبغوي ٢/ ١٥٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

منها:﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾ أي يوسوسون وسوسة بالغة خادعة خفية سريعة من دون أن تشعروا، ولذا جاءت لفظة(يوحون) مناسبة لمعناها، فهي تدل علي الخفاء، يقول ابن فارس:" الْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أصلٌ يدلُّ على إلقاء عِلْمٍ في إخفاءٍ أو غيرِه إلى غيرك "(١). وقوله:﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ أي المقاربين لهم في الطباع المهيئين لقبول كلامهم﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بالشبهات ليفتلوكم عما أمركم به، وصولًا إلي التعبد لغير الله كما تعبدوا هم بذبح الذبائح لآلهتهم، ولذا جاء التحذير والحكم علي من اتبعهم بقوله تعالي:﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ أي إن سايرتموهم في جدلهم، يعني في أكل ما نهاكم الله عنه واستحلاله، وفتحتم لهم صدوركم في استحلال الميتة فإنهم يجرونكم إلى طاعتهم، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون مثلهم؛ لأن تخطئة أحكام الإسلام شك في حكم الله وهو يساوي الشِّرك (٢).

إن أهل الشرك دائمًا يحاولون زعزعة المسلمين في دينهم، ويتخذون أمكر الوسائل بالجدال بالباطل، فيحاولوا أن يفتلوا المسلمين عن دين الله ليكونوا هم المشرعين، وذلك من خلال فرض أقيسة باطلة ينخدع بها من ضعف إيمانه، ومسألة تحليل الميتة وتحريمها هنا لا تؤخذ علي أنها فرع من الفروع، بل هي من الأصول؛ لأن الأمر ليس في مضغة لحمٍ- شاة مثلًا- ماتت ولم تُذَكّ ولم يذكر عليها اسم الله، هل تؤكل أم لا فقط، بل إن الأمر يتعلق بأكبر من هذا بكثير، وهي قضية من المُشرِّع، فكأن هذه المسألة مجرد نموذج مصغر، جاء تشريع الشيطان بأنها حلال؛ لأن الله هو الذي ذبحها، وجاء تشريعُ الله بأنها حرام؛ لأنها لم تُذَكّ، ولم يذكر عليها اسم الله، فصرح الله بأن الذين يتبعون شرع الشيطان وأولياءه ويُحَلِّلون لحم الميتة الذي حرَّمه أنهم مشركون﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ لأن الله وحده هو الذي يُحلِّل ويحرم(٣)، فكما يجب إفراده في عبادته يجب إفراده في حكمه؛ ولذا قال:﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[الكهف] وقال:﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٦/ ٩٣ (و ح ي).
(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٧/ ٢٤٧ وما بعدها، وزهرة التفاسير للشيخ أبي زهرة ٥/ ٢٦٥٢.
(٣) ينظر: العذب النمير من مجالسِ الشنقيطي في التفسيرِ للشنقيطي ١/ ٥٢٢.

فالآية بهذه الدلالات النفسية المنبعثة من وحداتها وأساليبها اللغوية صورت لنا حقيقة المجادلة في قضية أكل الذبائح وسببها وما يترتب عليها من أحكام وجزاء.

٣- قال تعالي:﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾[الأعراف].

الجو النفسي لسباق الآية: هذه الآية جزء من سورة الأعراف، وقد أمر الله فيها الناس أن يتبعوا ما أنزله الله علي لسان نبيه(ﷺ)﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وإلا سيكون حالهم حال القري الكثيرة التي هلكت بتكذيبها﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾، ثم أخذ الأسلوب القرآني في التدرج إلي أن أخذ في ذكر قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم؛ للعبرة والعظة، فبدأ بقصة نوح-عليه السلام- ثم ثنّي بقصة هود-عليه السلام- مع قومه، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها، صنم يقال له صَدَى، وصنم يقال له صَمُود، وصنم يُقال له الهَبَاء، فبعث الله إليهم هودًا نبيًّا [١]، فأمرهم أن يوحدوا الله، قال تعالي:﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ولكن دائرة الكفر واحدة، فيمضي الأسلوب القرآني ليرينا نفس الحوار الذي يحدث مع كفرة كل نبي، فجاء رد الكفار متشابهًا لتشابه قلوبهم في الكفر﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ "قال بعض أهل اللغة:" السَّفيه: الخفيف العقل... قال مجاهد: السَّفيه: الجاهل "[٢]. وجاء لفظ(السفاهة) منكرًا للمبالغة بعظمها، وكونها تامة راسخة فيه، "فهي محيطة بك من جميع الجوانب، لا خلاص لك منها، فلذا أدتك إلى قول لا حقيقة له "[٣]. ولم يكتفوا بهذا الوصف بل أضافوا إلي سوء أدبهم ما هو أفظع فقلبوا الحقيقة حيث قالوا﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي فيما جئت به، وفي نزول العذاب الذي وعدت به، ولما كان الأنبياء مأمورون

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي ٢/ ٢٠٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٣٩٠.
(٢) تهذيب اللغة للأزهري ٦/ ٨١ (س ف ه).
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٧/ ٤٣٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بحسن المجادلة أخذ هود في الرد عليهم في حسن خلق، مترفّعا عن كلماتهم الشنعاء الموجبة لتغليظ القول﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ ليس بِي شيءٌ من طيش العقل وخفّته، ولما نفي السفه انتفى أن يكون كاذبًا؛ "لأن الداعي إلى الكذب الخفة والطيش فلم يحتج إلى تخصيصه بنفي"(١). ولما نفى السفاهة أثبت ما يلزم منه ضدها بقوله:﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٞ ٦٨﴾ فلَا أخدعكم ولا أغشكم، ثم أنكر عليهم ما كانوا يعتقدونه- كما هي عادة الأمم مع أنبيائها- من أنه لا يبعث رسول من البشر فقال:﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ﴾، ثم أخذ في تفصيل أحكام النصح والإنذارِ فقال مهددًا ومذكرًا بنعم الله عليهم:﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ وتفوزون بالمطلوب.

وبعد هذا الرد الحكيم من هود كان المتوقع أن يستجيبوا لدعوته، ولكنهم قالوا من غاية قسوتهم علي صيغة الاستفهام التقريعي﴿أَجِئۡتَنَا﴾ أيها السفيه الكذاب﴿لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾ الذي تدعي أنه واحد﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ فلن نؤمن لك مهما قلت، وإن شئت﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ في دعواك.

التحليل النفسي للآية: بعد التحدي الغاشم من قوم هود لدعوته ولوعيد الله لهم وتيقنه من عدم قبولهم لدعوته ما كان من هود-عليه السلام- إلا أن جابههم بالرد الحاسم الذي يستحقونه﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ عبر بقد وبالفعل الماضي لتحقق الوقوع، وقدم الجار والمجرور(عليكم) علي لفظ(من ربكم) دلالة علي اختصاص العذاب بهم، وفائدة التعبير بقوله:(من ربكم) أن المتكفل بالذي وقع عليهم هو الله، وقوله:﴿رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ قال القفَّال: المراد بالرجس هنا الازدياد في الكفر بالرَّين على القلوب (٢). والغضب من الله العذاب والسُخْط على من عصاه،

(١) نظم الدرر للبقاعي ٧/ ٤٣٦.
(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٨٩.

وإعراضه عنه، ومعاقبته له [١]. وعلي هذا يكون المعنى أن الله زادهم كفرًا ثم خصَّهم بمزيد غضب.

وبعد أن أنذرهم وهددهم بوقوع العذاب عليهم وبخهم علي ما وقع منهم من المجادلة فقال علي صيغة الاستفهام الإنكاري:﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ أتخاصمونني وتنازعوننى بقوّة، وهذا إنكار منه لمخاصمتهم له فيما لا ينبغي فيه الخصام، ثم وضح فيما كانت هذه المجادلة فقال:﴿فِيٓ أَسۡمَآءٖ﴾ في شأن أشياء (ألفاظ) عارية عن المسمى، فما هي إلا أسماء ليس تحتها مدلول يستحق فكأنها معدومة، فأنتم تسمونها آلهة مع أن معنى ذلك فيها معدوم ومحال وجوده، فهي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، عاجزة وليست بقادرة، مخلوقة وليست بخالقة، فالمستحق للعبادة إنما هو الله الضار النافع القادر الذي خلق كل شيء، فصارت المجادلة والمنازعة بذلك باطلة.

وعلي ما سبق فالجدال في الألفاظ لا في مدلولاتها، ويحتمل أن يكون الجدال وقع في المسميات، فقد قيل إنهم سموا كل صنم باسمٍ على ما اشتهوا، وزعموا أن بعضهم يسقيهم المطر، وبعضهم يشفيهم من المرض، وبعضهم يصحبهم في السفر، وبعضهم يأتيهم بالرزق [٢].

وقوله:﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ آلهة ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ وفائدة التعبير بذلك إشعارًا بأن هذا لم يحدث إلا مِنْ جهتكم أنتم وآباؤكم الذين قَلَّدتموهم على غير علم ولا هُدًى﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ أي: من حجة وبرهان تستدلون به على عبادة هذه التماثيل الباطلة وتسميتها آلهة.

وعلي هذا نجد أن هودًا–عليه السلام– قد خاطب نفوسهم وعقولهم فحول آلهتهم إلى مجرد أسماء لا تبلغ أن تكون شيئًا وراء الاسم الذي يطلق عليها، وهذا أعمق في الإنكار عليهم، والاستهزاء بعقولهم.

ولما لم يجد هود–عليه السلام– منهم استجابة هددهم بالعاقبة المحتومة:﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أي العذاب الذي استعجلتموه﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ ولم يطل الأمر فجاء

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور ١/ ٦٤٩ (غ ض ب).
(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ٨٩/٥، والتفسير الوسيط، د: محمد سيد طنطاوي ٣٠٧/٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الرد بفاء التعقيب سريعًا، فحل بهم العقاب الذي توعدهم به، فقال تعالى:﴿فَأَنجَيْنَـهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ وقطع الدابر كناية عن الاستئصال والإهلاك للجميع، وقد ذكر الله- تعالي- كيفية إهلاكهم في عدة مواضع من القرآن، فقال:﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾[الذاريات] وقال أيضًا:﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ ۙ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾[الحاقة] كل هذا يدل علي أن الله- تعالى- ما أبقى منهم أحدًا جزاء جدالهم وكفرهم.

والآية بوحداتها اللفظية والأسلوبية صورت لنا المجادلة وذمتها وعالجة أصحابها من خلال مخاطبة عقولهم، وبينت جزاء المجادلة.

٤- قوله تعالي:﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾[الرعد].

الجو النفسي لسباق النص: تأتي سورة الرعد باسمها الذي تهتز له الأفئدة لتقرر الدلائل والحجج علي الكفار حتى لا يكون لهم عذر بعد ذلك، وتعرض أيضًا بعض سفاهتهم، فتبدأ السورة ببعض الحروف المقطعة معلنة التحدي من البداية﴿الٓمٓرٰ ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ فتتحداهم- بأبعاض وأجزاء اللفظ من عربيتهم- بتلك الحروف المقطعة المؤلفة من جنس الحروف الهجائية التي ينظمون منها كلماتهم، لتقرر عظم آيات القرآن وأنه معجز من عند الله، ثم أخذ الأسلوب القرآني في عدّ وتقرير بعض البراهين الدّالة على قدرة الله، فطاف بنا في آفاق عدة وعرض علينا آلاء الله الأخاذة-التي تأخذ الأفئدة- في الكون من السموات المرفوعة بغير عمد ومن تسخير الشمس والقمر، وفي الأرض الممدودة وما فيها من جبال وأنهار وجنات وزروع ونخيل ذات طعوم وألوان وأشكال مختلفة، وفي الليل يغشاه النهار، وكل هذه الأدلّة حسّية مشاهدة للجميع تثبت- لمن له أدنى عقل- قدرة الله، وبعد كل هذه المشاهد

التي تفعم النفس وتأخذ العقل تتعد ألوان العجب من مواقف هؤلاء الكفار، فإذا بهم ينكرون ويجادلون في البعث ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ بل من متممات العجب أنهم﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾، وبعد كل هذه الأدلة الحسية التي عرضها الله في هذا الكون والتي تأخذ جانب اللطف والرحمة، وبعد هذا الموقف المخزي من الكفار أخذ أسلوب الخطاب القرآني تنوعًا مختلفًا تغيرت فيه نغمة الخطاب إلي الشدة والارتفاع حتي يحرك ويزلزل تلك العقول الراكدة، ففرض أسلوب الهول والفزع في صورة الرجاء، بحيث يثير النفس فيملأها خوفًا ورجاءً وطمعًا وحذرًا، تلك المشاهد تتمثل في إتيانه تعالي ببعض الدلائل التي تشبه اللطف من بعض الوجوه والقهر من بعضها، وهي أربعة: البرق والسحاب والرعد والصاعقة، قال تعالي:﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾.

التحليل النفسي للآية: تلك المشاهد المخيفة الهائلة التي ترجف القلوب، تتمثل في مشاهد حية مفعمة بالحركة والحياة، يقول تعالى:﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ وقدم لفظ(هو) للدلالة علي أنه وحده الذي يفعل هذا، وعبر بالمضارع(يُرِيكُمُ، وَيُنشِئُ) للدلالة علي حدوث هذا في كل وقت، والمعني النفسي: أن الله هو الذي ينشئ هذه السحب الثقال المحملة بالماء الغزير، ويسيّرها في جو السماء، ويرسل من بين تلك السحب ذلك البرق الخاطف الذي يظهر فجأة ويختفى نتيجة تلك الشرارات الكهربائية النارية التي تظهر في السماء من اتصال سحابتين مختلفتين في كهربتهما فترى نورًا لامعًا يظهر من خلال ذلك، وقوله تعالى:﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ إشارة إلى أن هذه البروق الراعدة تثير في النفوس مشاعر مختلطة، فيخاف بعض الناس من تلك الشرارات التي تظهر في جو

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

السماء، ويخشى أن تكون صواعق مرسلة بالهلاك، على حين يطمع بعض الناس وينتظر الغيث الهاطل من ورائها [١].

وما زال الأسلوب القرآني في عرض مشاهد تخيم على النفس الرهبة والضراعة بحيث تظل في ترقب وحذر، فقال:﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ الرّعد: هو الصوت الهادر المخيف المسموع في طبقات الجو بسبب اصطكاك الأبخرة والأدخنة المحتبسة بين السحب المتراكمة، وتصادم سحابتين مختلفي الشحنة الكهربائية، يقول الأزهري:" قال ابن عباس: الرعد: ملك يسوق السحاب... قال اللغويون: الرعد: صوت السحاب "[٢]. والصواعق: كل عذاب مهلك، والمراد بها هنا: الصوت الشديد من الرعدة يسقط معها قطعة نار، ويقال: إنها المخراق الذي بيد الملك سائق السحاب، ولا يأتي على شيءٍ إلا أحرقه، ويقال: هي النار التي يرسلها الله مع الرعد الشديد، أو نار تسقط من السماء لها رعد شديد، قاله أبو زيد[٣].

ومراد الآية النفسي هو خضوع الكون كله لله مسبحًا بحمده- بما فيه من مراكز قوى- وخلع سمات الحركة والحياة على مشاهد الكون الساكنة لتشارك في الخضوع بالرغم مما تتمتع به من قوة مفرطة هي نفسها أداة للتسبيح، فيكون هذا الصوت المفزع، الذي يثير انتباه الإنسان ويروعه إلا إشارة للإنسان إلى أن يسبّح بحمد ربه.

وقوله تعالي:﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي على الرغم من هذه الأدلة الدالة على قدرة الله وألوهيته ولطفه بعباده، وبعد هذا المشهد المزدحم بتلك الألوان الملموسة من آثار قدرة الله من البرق والسحاب والرعد والملائكة والصواعق، وهي مشاهد لها أثرها في النفس؛ حيث تضفي جميعها جوًا من الارتجاف والخوف؛ خاصة أنها

---

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٧/ ٨٣.
(٢) تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ١٢٢(ر ع د)، وينظر: التفسير الوسيط للزحيلي ٢/ ١١٥٣.
(٣) ينظر: لسان العرب ١٠/ ١٩٨ (ص ع ق)، وتاج العروس٢٦/ ٢١ (ص ع ق) .

تأتي في سياق بيان قدرة الله أمام هؤلاء المجادلين، وفي هول كل هذا توجد شرذمة من المشركين مع رؤيتهم لكل هذه الظواهر الدالة على القدرة القاهرة تجادل في الله.

سبب نزول الآية: عن أنس بن مالك أن رسول الله(ﷺ) بعث رجلًا مرّةً إلى رجلٍ من فراعنة العرب، فقال: اذهب فادعُه لي، فقال: يا رسول الله، إنه أَعْتَى من ذلك. قال: اذهب فادعه لي، قال: فذهب إليه، فقال: يدعوك رسول الله(ﷺ)، قال: وما الله؟ أمن ذهبٍ هو أو من فضةٍ أو من نحاسٍ؟ قال: فرجع إلى رسول الله(ﷺ)، وقال: قد أخبرتُك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا. فقال: ارجع إليه الثانية فادعه، فرجع إليه فأعاد عليه مثل الكلام الأول، فرجع إلى النبي(ﷺ)، فأخبره، فقال: ارجع إليه، فرجع الثالثة، فأعاد عليه مثل ذلك الكلام، فبينما هو يكلمني إذ بعث الله سحابة حِيَالَ رأسه فرَعَدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقِحْف رأسه، فأنزل الله الآية [١].

والمجادلة علي هذا من الممكن أن تكون في آيات الله القرآنية؛ بدليل تحدي الله لهم في أول السورة، ومن الممكن أن تكون في قدرة الله علي البعث، بدليل تعجب الله من قولهم:﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۢ﴾،" قال ابن عباس: يريد يكذبون بعظمة الله "[٢]. فالمعنى أنهم يجادلون في توحيد الله والإقرار بكمال قدرته وإعادة الناس، ومن الممكن أن يكون الجدال في ذاتية الله تعالى كما ورد في سبب النزول.

وعلي العموم فهم مع غاية ضعفهم يجادلون ويكابرون فِي توحيد الله وفي عموم ما جاءت به الرسل من عند الله، والحال أنه ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾، أي شديد القوة،عن مجاهد، وعن الحسنِ: الهلاك، وقيل: المحال: المكر بالحق، وقيل: المحال: الغضب، وقيل: المحال: التدبير. وقيل: العقاب، وعن سفيان الثوري قال: شديد الانتقام [٣].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٣/ ٤٧٩ وما بعدها، وأسباب نزول القرآن للواحدي صـ ٢٧٧ وما بعدها، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٣٨٠.

(٢) التفسير البسيط للواحدي ١٢/ ٣١٧.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري ١٣/ ٤٨٣ وما بعدها، وتهذيب اللغة للأزهري ٥/ ٦٢ وما بعدها (م ح ل)، ولسان العرب لابن منظور ١١/ ٦١٩ وما بعدها.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وكل هذه المعاني تصح هاهنا، فمادة(محل) بجميع تقاليبها تدور حول صرف الشيء عن وجهه وعادته ، وذلك يستلزم والقوة والشدة والمكر وما شابه ذلك [١].

والمعنى النفسي للآية: أن الله شديدة مُماحلتُه في عقوبة من طغى وتمادى في كفره، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابًا من عنده لا يستطيعون حيلة لدفعه أو ردّه، لكنه يمهلهم لأجل معلوم بحسب ما تقتضيه الحكمة [٢]، وبهذا يسقط جدلهم ويكون في هباء أمام قدرة الله، وتضمحل أصوات جدالهم الضعيفة أمام أصوات هذا الهول المتضرع بالدعاء والخضوع إلى الله من البرق والسحاب والرعد والملائكة والصواعق ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[الإسراء:٤٤] فكلها مسبحة وناطقة بوجود الله. والآية بهذه الدلالات النفسية قد صورت لنا المجادلة، وما ترتب عليها من جزاء.

٥- قوله تعالي:﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾[الكهف:٥٦].

الجو النفسي لسباق الآية: هذه الآية استمرار للسياق بصدد تقريع وتسفيه الكفار، ففي الآية التي قبل هذه الآية في قوله:﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ بها تقرير تنديدي بطبع الإنسان الجدلي، فإن الله لم يترك وسيلة للبيان إلا أتى بها، حيث قد صرّف في القرآن أنواع الأمثال التي تذكر الناس بالله وتنذرهم عقابه إن لم يؤمنوا، ولذا تعتبر الآية (٥٤ من السورة، والتي سبق تحليلها) بمثابة مقدمة للآيات التي بعدها، حيث انتقل بعد هذه الآية إلي تمرُّد الكفرة وتكذيبهم بالحق البيِّن مع ما يشاهدونه من الآيات الواضحات، وتنديدًا بطابع الكفار العنادي الجدلي، فقال تعالي: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ والمراد بالناس- بدلالة السياق- الكفار؛ حيث وصفوا بمنعهم أنفسهم من الإيمان مع ما جاءهم من الهدى، بحيث لم يبقي مانعًا يمنع من الإيمان، ولكنها طبيعة الجحود التي لا تصدق إلا إذا أهلكت بمثل سنة الله في الأمم

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ١٠/ ٢٩٦.
(٢) ينظر: تفسير المراغي للمراغي ١٣/ ٨٣.

السابقة من البلاء الصاعق أو عذاب الاستئصال﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ أي عياناً كما قال ابن عطية، والمعنى عذابا غير المعهود، وقال مجاهد: معناه فجأة، وقيل: جمع قبيل، أي يجيئهم العذاب أنواعًا وألوانًا [١]، فهي لا تصدق ما أنذرت به الرسل حتى يقع، مع أن مهمة الرسل التبشير والإنذار.

التحليل النفسي للآية: إن الكافرين المعاندين يستقبلون دعوات الرسل بالمراء والإنكار والعناد والمكابرة والمجادلة بالباطل، ولذا عبر تعالى بأسلوب النفي والقصر المؤكد مهمة الرسل، فقال:﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ولكن ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، عبر بفعل المضارعة للدلالة على تكرر المجادلة، حال كون الجدال﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي متلبسين في جدلهم بالباطل، فهم يدافعون عنه، ويثيرون ترابًا بهذا الجدل ليضعفوا الحق الذي جاءتهم به الرسل، وغايتهم كما قال: ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾، فاللام هنا لام التعليل، والتعبيربالمضارع يفيد تجدد محاولتهم ادحاض الحق" أي: يزيلونه عن مركزه ويبطلونه "[٢]، وقال السّدي:" ليفسدوا "[٣]. ويقول ابن فارس:"الدالُ والحاء والضاد أصلٌ يدلُّ على زوالٍ وزلَق... ودَحَضت حُجَّةُ فُلانٍ إذا لم تَثْبُت "[٤]. "ودَحَضَتْ حُجَّتُه دُحُوضًا: كذلك على المَثَل إذا بطلت "[٥].

وقيل: إن الآية نزلت في المستهزئين والمقتسمِين وأتباعهم الذين كانوا يجادلون الرسول(ﷺ) بالباطل، قاله ابن عباس [٦]، وجدالهم بالباطل: أنهم ألزموه أن يأتي بالآيات على أهوائهم بعد ظهور المعجزات، وقد ذكر العلماء أمثلة لهذا الجدال، كقولهم للنبي(ﷺ): أخبرنا عن فتية ذهبوا أول الدهر، ما شأنهم؟ وعن

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٥٢٥.
(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٣/ ٢٨٢.
(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٦/ ١٧٨.
(٤) مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٣٣٢ (د ح ض).
(٥) لسان العرب لابن منظور ٧/ ١٤٨ (د ح ض).
(٦) المقتسمين هم اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض، ينظر: التفسير البسيط للواحدي ١٤/ ٦٠، وزاد المسير لابن الجوزي ٣/ ٩٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٤٧١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الرجل الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وعن الروح، وقيل: جدالهم: قولهم:﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾[الإسراء] وقولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۚ﴾[السجدة:١٠] وقولهم للرسول: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون:٢٤] ويحتمل مجادلتهم قولهم: هذا سحر، وكهانة، وإنه إفك، وشعر، ونحوه، وما أشبه ذلك مما يقصد منه التعنت وإزالة الحق الذي جاءت به الرسل (١).

ثم بين الأسلوب القرآني أن هؤلاء المجادلين لم يكتفوا بالجدال بالباطل لإدحاض الحق، بل أضافوا إلي ضلالهم أنهم:﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ اتخذوا كل ذلك محل سخرية واستخفاف، وهذا يدل على استيلاء الجهل والقسوة علي نفوسهم.

وأمام هذا المشهد المزدحم بالجدال بالباطل لادحاض الحق واتخاذ الآيات هزوًا لم يكن هناك مناص من بيان سوء عاقبة المجادلين، ووصفهم بالصفات الموجبة للخزي والخذلان، فقال:﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ﴾ أي وعلة إعراضهم أن الله جعل أغطية وغشاوة على قلوب هؤلاء، وجعل في آذانهم صممًا وثقلًا؛ لئلا يتدبروا هذا القرآن؛ وذلك لفقدهم الاستعداد لقبول الإيمان بما أصروا عليه من الكفر، كما قال تعالى:﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[الصف: ٥].

ثم هددهم تعالي أن لهم موعدًا يوم القيامة لن يفلتوا منه، وضرب لهم شاهدًا ونموذجًا علي ذلك من الأمم السابقة كقرى عاد، وثمود، ولوط وأضرابهم فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ وهذا الشاهد التاريخي واقع وملموس، فهذه القرى لما كفروا بآيات الله وعصوا رسله وأخذوا في مجادلتهم أهلكهم الله، وعجّل لهم العذاب في الدنيا، ولم يمهلهم كما أمهل أهل مكة، وفي هذا تحذير للمشركين من أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من الهلاك والدمار، وأن لا يغتروا بتأجيل العذاب، فإنه تعالى يمهل الظالمين ولا يهملهم.

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٥/ ٣٠٢، وتأويلات أهل السنة للماتريدي ٧/ ١٨٧.

والآية بهذه الدلالات النفسية المنبعثة من وحداتها وأساليبها اللغوية تكون قد صورت المجادلة وغايتها وما ترتب عليها من جزاء.

٦- قوله تعالي:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ (الحج).

الجو النفسي لسباق الآية: بدأ الله تعالى مطلع سورة الحج بهذا الإعلام الصارخ بالأمر بالتقوى فقال:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ولفظ (ٱلنَّاسُ) عام يشمل جميع المكلفين، مؤمنهم وكافرهم، فالمطلع يتضمن تحذيرًا لجميع البشر لتفادي أهوال يوم القيامة، والجو النفسي للمطلع يمتاز بالشدة والرهبة والعنف، والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر الخوف والانقياد والاستسلام، ثم أتى سبحانه بالجملة التعليلية للأمر بالتقوى بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة، فقال:﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ جاء الوصف منكرًا ليفيد العموم، أي لا يحيط به عقل ولا وصف، فهو خارج عن دائرة التصور البشرى، و(الزلزلة) في الأَصل: الحركة العظيمة والإزعاج الشديد بحيث تزيل الأشياء من مقارّها وتخرجها عن مراكزها، بما يحصل فيها من الأصوات والحركات المزعجة المتصلة، من النفخ في الصور، وبعثرة القبور، وغير ذلك وقت القيام واشتداد الزحام؛ وذلك لأن(زلزل) مضاعف(زل) إذا زال عن مقره بسرعة، ضوعف لفظه لتضاعف معناه، وهو هاهنا كناية عن التخويف والتحذير(١).

وبعد هذا المطلع المهول الذي يمتاز بالإجمال والتجهيل والخفاء من غير تحديد، أخذ سبحانه في عد بعض هذا الإجمال والخفاء، ففصل بعض أجزاءه فقال:﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ هذا المشهد هو لقطة سريعة من مشاهد هذا اليوم، فمجرد رؤية ما يطلع في هذا اليوم يأخذ على الناس عقولهم حتى إن كل حبيب يتخلى عن محبوبه، وهذا يدل علي أن وقع الساعة على

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ٣/١٣، وتاج العروس للزبيدي ٢٩/ ١٣٣(ز ل ل)، ومحاسن التأويل للقاسمي ٧/ ٢٣٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

النفس شديد الأثر، حيث لا يملك أحد- مع هذا البلاء- شيئًا من نفسه، فتتعطل فيه الأجهزة (العاملة) الإرادية منها وغير الإرادية، وتصبح مجرد شبح يتحرك كما تتحرك الأشباح، وكل هذا من إرهاصات الساعة قبل أن تقع، فكيف بالساعة نفسها حين ينكشف أمرها كله! (١). وقوله تعالي:﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ استدراك على محذوف تقديره: فهذه الأحوال- وهي الذهول والوضع ورؤية الناس سكارى- هينة لينة، ولكن عذاب الله شديد، فخوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم، وجعلهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه (٢). هذا المشهد المعجز المزدحم بالأمواج المتلاطمة كل من تدبره يتملاه الخيال ويشخص بصره من الهول.

التحليل النفسي للآية: هذه المقدمة المرعبة تعتبر أساس للآية التي نحن بصددها ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ والآية معطوفة على جملة﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ ويفهم من هذا العطف أن الناس قسمان، منهم من يتقي الله فينجو من أهوال الساعة، ومن الناس- رغم هذا المطلع العنيف والتحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها وأهوالها- من يلهى عن الساعة ويأخذ كل حديث عنها مأخذ العبث، فيتطاول علي الله فيجادل فيه، ولا يستشعر تقواه.

والآية ذكرت المجادلة في الله ولم تصرح بمضمون هذه المجادلة وفيما جادلوا فيه؟ لكن السياق يوضح أن هذه المجادلة كانت في البعث في الآخرة، فالسياق القبلي للآية يتحدث عن أهوال زلزلة الساعة، وكذلك السياق البعدي-أيضًا- يدل علي ذلك كما سيأتي، وقد ورد أن الآية نزلت في جماعة من قريش كانوا ينكرون البعث، قيل: الوليد وعتبه بن ربيعة، وقيل: أبي بن خلف، وقيل: أبي جهل(٣). والأكثرون على أن الآية نزلت في النَّضر بن الحارث، وكان ينكر البعث

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٩/ ٩٧٢.
(٢) ينظر:الكشاف للزمخشري ٣/ ١٤٢ وما بعدها، وتفسير حدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري ١٨/ ٢٧٢ وما بعدها.
(٣) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٣/ ٢٥٨.

وإحياء من صار ترابًا ويجادل فيه، وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وعن سهل قال: هو من يجادل في آيات الله بالهوى، وعن غيره قال: هو الذي يرد النص بالقياس [١]. وعلى كل فالآية "عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم... وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة، فهو يخبط خبط عشواء، غير فارق بين الحق والباطل ويتبع في ذلك خطوات كل شيطان عات "[٢]. فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وليت هذا الجدال كان عن علم، ولكنه جدال متلبسًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ صحيح وبدون حجة جدال المتطاول بالباطل المجرد من الدليل، وغاية ما عنده تقليد أئمة الضلال ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ المريد: المتجرد للفساد العاري عن الخير، يقول ابن فارس:" الميمُ وَالراء وَالدال أصلٌ صحيح يدلُّ على تجريدِ الشَّيْءِ من قِشْره أو ما يَعْلُوه من شَعْرِهِ...المَارِدُ: العاتِي، وكذا المَرِيدُ، كأنه تَجَرَّد من الخير"[٣]. والمعني النفسي: ومن الناس من يتبع في كل شأن من شؤونه وأهوائه شياطين الإنس والجن، يوسوسون ويزينون له طرق الغواية التي تصل به إلى النار دون عرض على نظرٍ واستدلال، والتعبير بالكلية يدل على أنهم يتبعون كل منحرف من الأفكار والأقوال والأفعال.

ثم بين الأسلوب القرآني جزاء المجادل في الله بغير علم المتبع في ذلك كل شيطان مريد، فقال:﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ فيالها من هداية هي الهلاك بعينه.

ثم عالج الأسلوب القرآني قضية البعث معالجة نفسية من خلال إقامة الدليل عليها، وبذا يكون قد ألزم المجادلين الحجة، فقال:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ سياق هذه الآية- وهو السياق البعدي(اللغوي)- يشير إلي أن جدال بعض

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٣/ ٤١٨، ومعالم التنزيل للبغوي ٣/ ٣٢٤.
(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ١٤٣.
(٣) مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٣١٧ (م ر د).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الناس كان في البعث علي الرغم- كما سبق- أنه لا مانع من حمل الجدال علي العموم.

وفي التعبير بالكينونة﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ "يقتضي إحاطة الريب فيهم من جميع جهاتهم لأجل حلولهم فيه "(١). إحاطة الظرف بالمظروف. وعبر تعالى بالريب مع أنهم موقنون بعدم حصوله، فيه تصوير للنفس التي لم تفطر على اليقين، وإيذاناً بأن أقصى ما يمكن صدوره منهم - وإن بلغوا غاية المكابرة والعناد- هو الارتياب والجدال فى شأنه، أما الجزم بعدم إمكانه فلا يدور بخلد عاقل، وهو فوق ذلك يدعو المنكرين إلى أن تكون حالهم حال ريب وتردد لا حال قطع وإنكار، بل انتظار حتى يجيء الدليل من النقل القاطع (٢).

وكان منهج الأسلوب القرآني حول هذا الجدال أن خاطب عقولهم وأفئدتهم خطابًا متلبسًا بلون صريح من مباشرة الحوار الرباني مع الناس ليكون هذا أقرب لتأليف العقول والقلوب، وفي نفس الوقت يكون هذا احتجاج على العالم بالبدأة الأولى، ليقطع ألسنة المجادلين المبطلين، ويخنق أنفاسهم، ويبطل شبههم، فنزل القرآن ينادى بالبعث، ويسوق الأدلة كالصواعق أو أشد، فانتزع من حياة الإنسان التي ينتقل بين أطوارها كل لحظة، ومن حياة النبات التي يشاهد تحولها كل موسم دليلين اثنين على قدرته المطلقة، الصالحة في كل آن لكل إنشاء، والتي يعد بعث الإنسان بعد موته، وإنشاؤه نشأة ثانية أهون الأشياء وأيسرها جميعًا (٣)، فقال تعالى تعبيرًا عن الدليل الأول المنتزع من حياة الإنسان مبيناً مراحل تطور خلقه﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ وهذا الدليل مشتق من الماضي الواقع المستمر الدائم

(١) تفسير ابن عرفة ٣/ ١٨٠.
(٢) ينظر: تفسير المراغي ١٧/ ٨٨، وزهرة التفاسير، للشيخ: أبي زهرة ٩/ ٤٩٤٢ وما بعدها.
(٣) ينظر: التيسير في أحاديث التفسير لمحمد المكي الناصري ٤/ ١٥٥.

يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة؛ لأن الناس خلقوا ويخلقون كل يوم بل كل لحظة من تلك الأطوار السبعة المذكورة في الآية، فالآية تشرح قضية البعث وتعرضها هذا العرض المحسوس الواضح الذي تكاد تمسك به اليد، وهذا المثال يقتضي للمُعتبِر به والمتدبر في حياته أن القادر على هذه المناقل المُتْقِن لها قادر على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل إلى حالها الأولى [١]، وهذا أول دليل يسقط به جدل المجادلين في قدرة الله على بعث الخليقة وحشرها يوم الدين.

وقوله تعالي:﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ دليل آخر منتزع من حياة النبات يسوقه تعالى حجة على أن البعث حق لا شك فيه، والخطاب فيه لكل ذي عين ممن يجادلون في البعث وغيرهم، فإذا كان الله في الدليل الأول على البعث لم يحل على الرؤية في جميع الأطوار التي يتقلب فيها الإنسان؛ لأن بعضها لا يقع تحت المشاهدة المباشرة، واكتفى بأن قال: ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ فإنه قد أحال على الرؤية في الدليل الثاني إحالة واضحة ولا شك أن البعث يتجلى في النبات واقعيًا من آن لآخر؛ ولذا عبر بالفعل المضارع (وتري) الذي يدل علي التجدد والاستمرار، ومعنى هامدة:" مُقْشَعِرَّة لا نبات فيها إلا يبيس مُتَحَطِّم "[٢]. واهتزت "الهزّ: تحريكك الشيْءَ...اهتز النباتُ: إذا طال... اهتزت الأرض: إذا أنبتت "[٣]. ومعنى ربت:" زادت وارتفعت"[٤] بنفس النبات، والمراد من كل زوج بهيج " أَي من كلِّ ضَرْب من النبات حَسَن يبهج من رآه ، والزوج: اللَّوْن "[٥].

والمعنى النفسي للآية: وترى أيها الإنسان الأرض المجدبة المقفرة يابسة لا نبات فيها، فإذا هي موات في موات، وصمت موحش رهيب كصمت القبور، فإذا أنزلنا عليها الماء دبت الحياة إلى البذور، وَرَبَتْ ونمت كما ينمو الطفل، وأَنبتت من

(١) ينظر: الجواهر الحسان للثعالبي ٤/ ١١٠، والتفسير القرآني للقرآن ٩/ ٩٧٦.
(٢) العين للخليل ٤/ ٣١ (ه م د).
(٣) تهذيب اللغة للأزهري ٥/ ٢٣٠ (ه ز).
(٤) تهذيب اللغة للأزهري ١٥/ ١٩٦ (ر ب ا).
(٥) تهذيب اللغة للأزهري ١١/ ١٠٥ (ز و ج).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

كل صنف حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الريح من مختلف أَنواع النبات والطعوم. فهل بعد هذه النماذج الحية يختلف بعث الإنسان بعد موته عن هذا في شيء ؟

والآية بهذه الدلالات النفسية المستفادة من ألفاظها وأساليبها قد صورت لنا المجادلة في جوها الرهيب، وأنها بغير علم اتباعًا لكل شيطان مريد، وعالجت قضية البعث معالجة نفسية من خلال توضيح حيثياتها، انتزعها الله من نفس الإنسان ليتدبر، فإن أعياه النظر إلى نفسه وجدها في المحيط الذي يدور في فلكه كالأرض التي يمشى عليها، فإن عمى عن هذا وذاك، فهيهات أن يرى وجه الحق أبدًا، كما قال تعالى:﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[الحج].

٧- قوله تعالي:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾[الحج].

الجو النفسي لسباق الآية: هذه الآية معطوفة علي قوله تعالي:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ كما عطفت عليها﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ فكأن الناس- بعد أن بدأت السورة بالأمر بالتقوى، وحذرت من زلزلة الساعة- فريقان، فريق متقي ربه، وفريق آخر علي النقيض تمامًا من المعاندين الذين يجادلون في الله، وهذا الفريق علي أحوال، الأول كما قال الله:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ والثاني كما قال:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ وبهذا تكون هذه الآية استمرارًا في سياق الآية التي سبق تحليلها ومعطوفة عليها، وقد تكون مستأنفة فتكون استطرادًا إلى ذكر حال فريق آخر من زعماء الكفار يصدّ غيره، ويكابر في الحق بلا دليل، ويأْمّ غيره في الضلال، أما الآية السابقة:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ ففي بيان حال من يقلدونهم ويتبعونهم [1]. وبناء علي ما سبق من كون الآية استئنافية أو عاطفة اختلف في المجادل الذي نزلت الآية بسببه، فالظاهر أن

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء ٦/ ١١٨٦.

المجادِل في هذه الآية غير المجادل في الآية قبلها، فقيل: أنها نزلت في الأَخْنس بن شُرَيق، وعن ابن عباس: في أبي جهل، وقيل: إن الآيتين ليستا واردتين على مورد واحد، فهذه الآية في المقلَّدين اسم مفعول بفتح اللام، وهم الرؤساء الدعاة إلى الضلال، والأولى في المُقَلِّدين اسم فاعل بكسر اللام، أي في الأتباع الجهلة الذين يجادلون بغير علم، اتِّباعًا لرؤسائهم من شياطين الإنس والجن، ويدل لهذا أنه قال في الأولى:﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ وقال في هذه:﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليضل غيره ويصرفه عن طاعة الله، والجمهور على أنها والتي قبلها في النَّضْر، كُرِّرت مبالغة في الذم، كما تقول للرجل تذمه وتوبِّخه: أنت فعلت هذا، أنت فعلت هذا، ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه في كل آية بزيادة على ما وصفه به في الآية الأخرى، فكأنه قال: إن النضر بن الحارث يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، وَالنَّضْر بن الحارث يُجَادِل في الله من غير علمٍ ومن غير هُدًى وكتاب منير؛ ليُضل عن سبيل الله، وهو كقولك: زيد يشتمني وزيد يضربني، وهو تكرار مفيد [١]. وبهذا يكون المجادل اتخذ عدة طرق في جداله وإضلاله. وقيل: هي عامة لكل من يتصدَّى لإضلال الناس وإغوائهم [٢]، حتي ولو كان سبب نزول الآية هو موقف جدلي وقفه أحد زعماء الكفار؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

التحليل النفسي للآية: قوله:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ التبعيض للكافر والمشرك﴿مَن يُجَٰدِلُ ﴾يخاصم وينازع، وعبر بالمضارع للدلالة علي الاستمرارية وتعبيرًا عن قوة جداله، وباعتبار أن الآية عامة لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم، وأن السورة مدنية، وفي المدينة التقى النبي(ﷺ) باليهود، لذلك تشعبت المناقشة حول الله تعالى إلى شعب شتى فوق الجدل في عبادة الأوثان والإشراك بالله تعالى، فالمجادلة في اللَّه تعالى يدخل فيها كل مجادل في توحيد الله وإفراده بالأُلُوهة، وفي ذاته وصفاته وأفعاله، وقدرته وعلمه ووحدانيته، ويدخل فيها-أيضًا- منكري البعث

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/ ١٥، والبحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٨٧، ٤٨٨.
(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني ٣/ ٥١٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والنشور، والحساب والجزاء، ومن جعل الملائكة بنات الله، ومن أنكر اصطفاءه أنبياء من البشر، وغير ذلك مما أكثروا فيه الجدل دون أن يكون لديهم أي دليل أو سند [١].

وهؤلاء يجادلون في الله بدون تحقق شروط المجادلة فيهم، فهم يجادلون حال كونهم متصفين بصفات أحدها:﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ضروري حسي صحيح، أو بدهي فطري يهدي إلى المعرفة، فالمراد بالعلم- كما قال كثير من العلماء- العلم الضروري، والأولى حمل العلم على العموم [٢]. وثاني صفات المجادل أنه يجادل كما قال الله: ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي ولا دليل نظري استدلالي يهدي إلى الحق ويبينه، ولا حدْس وكشف ملهم من عند الله ملقى في روعه [٣]. وثالث صفات المجادل أنه يجادل بلا﴿كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾، والمراد بالكتاب المنير هو العلم السمعي المتعلق بالوحي وهو القرآن [٤]. وفى ذلك معني نفسي وهو التعريض بأهل الكتاب الذين زيّفوا كتبهم ثم استقبلوا بها النبي يجادلونه، ويحاجّونه بما فيها من أحكام وأخبار، فالكتاب المنحرف الذي لا يلزم طريق الحق يكون قوة عاتية من قوى الضلال والفساد [٥].

ولا شك أن انتفاء هذه الثلاث عن المجادل شهادة بإفراطه في الجهل في الله، وأن جداله بالباطل؛ لأن أي حجة إنما تقوم بأحدي هذه الثلاث التي ذكرها الله، وبهذا تكون الآية جردت هذا المجادل من أي مستند إليه في جداله سواء أكان عقليًا أم نقليًا، وأثبتت له الجهالة من جميع الجهات.

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٦/ ٤٦٨، وزهرة التفاسير للشيخ أبي زهرة ٩/ ٤٩٤٨ وما بعدها، والتفسير الوسيط لمجموعة من العلماء ٦/ ١١٨٧.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ٢٠٧، وغرائب القرآن للنيسابوري ٥/ ٦٧، والفواتح الإلهية الموضحة للكلم القرآنية للشيخ علوان ١/ ٥٤٨، وفتح القدير للشوكاني ٥١٩/٣.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٠٧/٢٣، والفواتح الإلهية للشيخ علوان ٥٤٨/١.

(٤) ينظر: غرائب القرآن للنيسابوري ٦٧/٥، وفتح القدير للشوكاني ٥١٩/٣.

(٥) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٩/ ٩٩٢.

وقوله:﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ حال ثانية: من فاعل يجادل، أي: حالة كونه معرضًا بجانبه عن الحق متكبرا عنه، قال الأزهري" معناه: لاويًا عُنُقه، وهذا يوصف به المتكبِّر"(١). أو المعنى" متكبِّرًا معرضًا عن الإسلام، ولا يخفى أن التكبر والإعراض من نتائج العُنق، فالمآل واحد "(٢). وذكر عن العرب أنها تقول: جاءني فلان ثاني عطفه: إذا جاء مُتَبختِرًا من الكبر، وعن قتادة: لاو رقبته، وقال مجاهد: لاويًا عُنُقَه بقبحٍ، وقال الضحّاك: شامخًا بأنفه، وقال آخرون: معنى ذلك أنه يُعرِض عما يدعى إليه فلا يَسْمع له، وهذه الأقوال متقاربة المعني ومتحدة الغرض وهو الكبر(٣).

ولا شك أن كل حركة من حركات الإنسان تدل علي انفعالاته وما يدور بخلده بما يسمي بتفاعل الحركة الجسمية مع المعني، وهنا يرسم لنا الأسلوب القرآني صورة هذا الصنف المتعجرف من الناس الذي يجادل وهو مائلًا مزورًا بجنبه، تيهًا وكبرًا واستنكافًا عن سماع دعوة الحق، فيعطيها ظهره، أو جنبه، مبالغة وإمعانًا في الكبر والعناد، فالآية تجسد لنا مشهد من لا ينأي بنفسه أن يكون بهلوانًا أو ممثلًا في سيرك يتلاعب بأعطافه للوصول إلي غرضه، إنه يكابد نفسه ويتعبها من أجل ذلك، ويستخدم كل قواه لتضليل غيره، حتي لو استدعي هذا أن يذل نفسه بهذه المكابرة حتي يكون كالراقص الذي يهز أكتافه علي المسرح أمام الناس.

ثم بين الغرض من كل ما سبق، فقال:﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ اللام للتعليل، والتعبير بالمضارع دلالة علي إصراره ووتكريره للجدال، أي غرضه من كل ذلك الاجتهاد في إضلال غيره عن دين الله وطاعته، فيريد بجداله أن يُوهم العامة بطلان الإسلامويستنزلهم عنه؛حتيلا يتَّبعوه، فكان إذا "أراد أحدمن قومه الدخول في الإسلام أحضره وأقامه وشرط له وعاتبه، وقال: هذا خير لك مما يدعوك إليه محمد"(٤).

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٢/ ١٠٦ (ع ط ف).
(٢) تاج العروس للزبيدي ٢٤/ ١٦٩ (ع ط ف).
(٣) ينظر: جامع البيان للطبري ١٦/ ٤٦٨ وما بعدها، والكشف والبيان للثعلبي ٩/٧. والبحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٨٨.
(٤) النكت والعيون للماوردي ٤/ ١٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وبعد أن جسدت لنا الآية صورة هذا المجادِل ونفسيته بجمعه من الصفات في جداله ما لا يتصوره عقل، عالجته من كبره فعاملته بنقيض مقصوده، فالخزي نقيض ما كان يُؤمِّلُه من الكبر والعظمة، فقد ترتب على إضلاله لغيره كثرة العذاب؛ إذ عليه وزر من تبعه، ولذا ذكرت الآية نتيجة جداله، وما أعدّ له في الدنيا بقوله: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو الإهانة والذلة والصغار، وبخصوصية أن الآية نزلت في أفراد معينين يكون معني الخزي هنا "هو ما أصابهم من القتل يوم بدرٍ، ومن القتل والأسر بعد ذلك... وينطبق الخزي على ما حصل لأبي جهل يوم بدر من قتْلِه بيد غلامين من شباب الأنصار... وينطبق الخزي أيضًا على ما حل بالنضر بن الحارث من الأسر يوم بدر وقتله صَبْرًا "(١). وقيل: الخزي: ما يرى من إعزاز الله للنبي(ﷺ) والمؤمنين، ومن إذلال الله لجبهة الكافرين الذين كان هذا الضال مظاهرًا لهم، وما يجري لهم من الذكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة، كما قال:﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾[القلم] وقوله تعالى:﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[المسد](٢).

مشهد الخزي لم ينته بعد، ففي اليوم الآخر الذي كان ينكره عذابه أشد وأوجع، كما قال تعالي:﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ وهو النار يحرق ويصطلى بها.

٨- قوله تعالي:﴿وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾[الحج:٦٨].

الجو النفسي لسباق الآية: يجوز أن تكون الآية معطوفة علي قوله تعالي:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ بعد أن عطفت عليها المجادلتان السابقتان، وكأن المراد هنا بيان كيفية التعامل مع هؤلاء المجادلين بالباطل بعد بيان حالهم وأوصافهم، حيث يمضي الأسلوب القرآني بتوجيه خطاب للرسول(ﷺ) فحواه أن يمضي في طريقه غير ملتفت إلى جدال هؤلاء له، يقول تعالي:﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٧/ ٢٠٩.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/١٦، والتفسير القرآني للقرآن ٩/ ٩٩٣.

لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴿٦٧﴾﴾.

التحليل النفسي للآية: قبل تحليل الآية يجب أن نعرف معنى(مَنسَكًا)؛ لأن هذا سيترتب عليه معني ما بعده، يقول ابن منظور:" النُّسُك: الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَكُلُّ مَا تُقُرب بِهِ إِلى الله... والنُّسُكُ والنِّسيكة: الذَّبِيحَةُ... والنُّسُك: مَا أَمرت بِهِ الشريعة"(١).

وعلي هذا فالنسك له معنيان، معني عام وهو: العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله مما أمرت به الشريعة، ومعني خاص من أفراد العام، وهو: الذبيحة.

فعلى المعني الأول يكون قوله:﴿مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ كما قال ابن عباس: شريعة هم عاملون بها. وقيل علي المعني الثاني الذي قاله مجاهد ومقاتل وغيرهما: يعني ذبح يذبحونه، ودم يهريقونه (٢). وذلك بناء علي أن الآية نزلت بسبب جدال كفار قريش وخزاعة في أمر الذبائح، حيث قال بُدَيْل بن وَرْقَاء، وبِشْر بن سفيان الخزاعيان ويزيد بن خُنَيْس– من بني الحارث بن عبد مناف– للمسلمين: ما لكم تأكلون ما ذبحتم، ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة! فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة (٣).

وعلي هذا تكون الآية مشهدًا مستقلًا من مواقف جدلية بين النبيّ(ﷺ) والمشركين حول بعض التشريعات والمحرّمات والمحلّلات مما جاء منه أمثلة عديدة في القرآن. وقد رجح أكثر المفسرين المعني الأول؛ لقوله تعالى:﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[الْمَائِدَةِ: ٤٨]؛ ولأن الْمَنْسك مأخوذ من النُّسك، وأصل النسك التعبد، وهو العبادة، وإذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه لتخصيصه بالذبح؛ لأنه فرد من أفراد النسك (٤). ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٤٩٨/١٠ (ن س ك)، وينظر: تاج العروس ٣٧٢/٢٧ (ن س ك).
(٢) ينظر: التفسير البسيط للواحدي ١٥/ ٤٨٩.
(٣) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ١٣٧، ومعالم التنزيل للبغوي ٣/ ٣٥٠.
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ٢٤٩، وفتح القدير للشوكاني ٣/ ٥٥٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقوله تعالى:﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي سائر أرباب الملل بما يلقيه الشيطان إليهم من الشبه الفاسدة، ولعل هذا واضح في التعبير بلفظ المنازعة الذي يفيد قلع الشيء من أساسه، والفاء للإفصاح؛ لأنها قد أفصحت عن شرط مقدر يفيد ترتيب ما بعده على ما قبله، أي إذا ظهر بالدليل أنا جعلنا لكل أمة منسكًا، وأن هذا هو شأن التدرج في الشرائع﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ في أمر الدين وشرائعه ومنها شريعة الذبح، و(لا) نهي يراد به النفي مرتب علي ما قبله، لتنفي تصور حدوث المنازعة من أساسها فيما سبق، فمضمون النهي عدم الالتفات إليهم، والسير على منهاجه، ولذا أكد تعالي ذلك، فقال:﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أي أعرض عن هذا الجدل الفارغ وامض في طريقك داعيًا هؤلاء المنازعين وعموم الناس إلى دين الله وتوحيده وشرائعه الحقة والتي منها شريعة الذبح، ثم علل ذلك بقوله:﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ أي: لا اعوجاج فيه موصل إلى المقصود، وهو سعادة الدنيا والآخرة.

والآية تفوح باحتقارهم وأنهم أقل من أن يتفاعل الرسول(ﷺ) معهم في هذه المجادلات وعليه ألا يمكنهم من أن ينازعوه؛ لأن المنازعة تنفع طالب الحق وهؤلاء أهل جدال ومراء، وهذا يدل على جهلهم، لأن ما جئت به من عند ربك مصدق لشريعتهم.

ثم بين له تعالي ما يفعله إذا ما لجّوا في منازعتهم له فقال:﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾ أي: وإن أبوا إلا مجادلتك بالباطل وتكذيبك- كعادتهم- عنادًا واستكبارًا بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم ذلك، وبعد أن ظهر الحق، فَكِل أمرَهم إلى الله وقل لهم علي سبيل التهديد تاركًا هذا الجدال﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾ بأعمالكم وبقبحها من الجدال والتكذيب، ومجازيكم عليها، وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق، وهذا تأديب يجاب به كل متعنت إذ لا جواب لصاحب العناد إلا هذا [١].

(١) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٤٥٣/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٥٣٥/٧.

ثم أكد- سبحانه- هذا التهديد والإعراض فقال:﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ أي أمركم جميعًا إلى الله يقضى بينكم بحكمه يوم القيامة فيما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين وشرائعه وسيجازي كل بعمله﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾[الزلزلة].

والآية بهذه الدلالات النفسية المنبعثة من وحداتها اللغوية والأسلوبية تكون قد صورت المجادلة وعالج المنازعين والمجادلين نفسيًا بعلاج الترك، وهو اهمالهم وعدم منازعتهم والتفاعل معهم؛ لأن طبع النفس البشرية المغرورة إذا أظهرت لها الاهتمام زاد ذلك من غرورها وكبرياءها، وإذا أهملت وتركت تطامنت وانخفض غرورها، من هنا جاء التوجيه القرآني للرسول(ﷺ) وللمؤمنين من بعده بعدم منازعة السفيه المجادل بالباطل؛ لأنه لا يناظر، وإن كان هناك من رد فليدفع بقولنا: اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ، وسيحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون.

٩- قوله تعالي:﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾[لقمان:٢٠].

الجو النفسي لسباق الآية: نجد في هذه الآية طريقة أخري في الجدال تشبه الجدال الذي سبق في سورة الحج(آية:٨) إلا أنه في آية الحج ذكر زلزلة الساعة وما يحيط بها وما يترتب عليها، ففي هذا مخاطبة بالشدة التي توجب علي الإنسان التقوي، ومع هذا هناك من لم يتق ويجادل في الله، وهنا يعدد نعمه وآلائه -علي طريق التلطف وإمعان النظر- ومع هذا هناك من يجادل في الله، وكل هذا تنوع في أسلوب الخطاب القرآني، فهذه الآيات بأساليبها ومؤثراتها خاصة من خصائص أسلوب القرآن في معالجة النفس البشرية، يعمد فيها إلى الجمع بين الأغراض المختلفة، ويمزج بينها مزجًا قوياً لا تحس فيه بقلق أو اضطراب، بل تحس بالتناسب والالتئام.

والآية التي نحن بصددها استئناف عن الكلام السابق المتضمن توبيخ المشركين على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحة

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

للعيان يشاهدونها في كل آن، وإغداقه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة، المعروفة لهم وغير المعروفة قال تعالي:﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾ (لقمان).

التحليل النفسي للآية:﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾" الاستفهام تقريري أو إنكاري لعدم الرُّؤية بتنزيلهم منزلة من لم يَرَوا آثار ذلك التسخير لعدم انتفاعهم بها في إثبات الوحدانية "(١).

والآية تعرض صورًا من مظاهر قدرة الله، مستمرة-كما يفيده التعبير بالمضارع تروا- مستمدة من مشاهدات الناس، فيها الحكمة التي تدعو إلي التوحيد لمن فكر في آلائه، وبالرغم من كل النعم السابغة التي عمّكم وغمركم بها- واللفظة تدل علي الإفاضة والشمول، تعبيرًا عن السعة والكثرة والتعدد- التي تظل الناس، بما سخر وذلل وحقّر (٢) في السماء من شمس، وقمر ونجوم، وغير ذلك مما هو معلوم وغير معلوم، وبما سخر لهم في الأرض من حيوان، وما أجرى فيها من ماء، وما أخرج منها من نبات وغير ذلك مما هو معلوم وغير معلوم، وبالرغم من كل ما أسبغه عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة مما يقع تحت مشاهدتهم الحسية، ويرون آثاره في أنفسهم وفيما يحيط بهم، يستعملون كل ذلك، ولا يستحيون أن يجادلوا في الله المنعم﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾.

سبب نزول الآية: قيل: نزلت في يهودي جاء إلى النبي(ﷺ) فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته، قاله مجاهد. وقيل: نزلت في أُمية بن خلف وأبي بن خلف وأبي جهل بن هشام والنضر بن الحارث

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/ ١٧٤.
(٢) مادة(س خ ر) تدل علي الاحْتِقَارِ وَالاسْتِذْلَال، ينظر: مقاييس اللغة ٣/١٤٤.

وأشباههم؛ كانوا يجادلون النبي(ﷺ) بالباطل في الله وفي صفاته، وقيل: إنها نزلت في النَّضْر بن الحارث، كان يقول: إن الملائكة بنات الله، قاله ابن عباس [١].

والمجادلة في الله: يحتمل في توحيد الله، وفي قدرته، أو في البعث، أو أن الملائكة بنات الله، أو في الرسالة أنه أرسل أو لم يرسل، أو في كتابه، أو غير ذلك مما جادلوا فيه [٢].

ولا شك أن هذه المجادلة بالرغم من كل هذه النعم المسخرة والسابغة مستغربة مستنكرة تنفر منها الطبائع والفطر السليمة، إنها مجادلة ليس لها وصف أو مسمى إلا البشاعة والقبح، ومما يزيد موقف المجادل بشاعة وقبحًا أنه يجادل كما قال الله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [٣].

واستمر الأسلوب القرآني في تقريع المجادلين والتنديد بما يفعلوه فبين- سبحانه- أنهم لم يكتفوا بالمجادلة بالباطل، بل أضافوا إلى تلك الرذيلة رذائل أخرى منها العناد والتقليد الأعمى، فإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله على أيدي رسوله جاء الجواب سخيفًا لا يصدر إلا ممن لا عقل له﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

ولقد عاب الله عليهم هذا المنطق العجيب ورد عليهم وعلى آبائهم، وبين بطلان الاعتماد في العقيدة على مجرد تقليد الآباء فقال:﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ البعيد من الرحمة المحترق باللعنة، وهو أعدى أعدائهم دليلهم، والهمزة للاستفهام، والواو للحال، أي: أيتبعون ما كان عليه آباؤهم، والحال أن هذا الاتباع هو من وحى الشيطان الذي﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٢١﴾ وعبر بالمضارع في قوله:﴿يَدْعُوهُمْ﴾ تصوير لحالهم وأنه مستمر في ضلالهم، أي: أيتبعونهم ويقلدونهم تقليدًا أعمى بلا تفكير، ولو كان الشيطان يدعوهم إلى ضلال يُفضِي بهم إلى عذاب النار التي تتسعَّر بهم نتيجة لاتباعهم له، وهذا استفهام على سبيل الإنكار اللاذع، يتضمن

(١) ينظر: النكت والعيون للماوردي ٤/ ٣٤٣، وتفسير القرآن للسمعاني ٤/ ٢٣٥، ومعالم التنزيل للبغوي ٣/ ٥٩٠.
(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي ٨/ ٣١٠.
(٣) سبق تفسير المراد بالعلم والهدي والكتاب المنير في آية الحج.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

التهكم والسخرية من أفكارهم، والتعجب من التعلق بشبهة هي في غاية البعد من مقتضى العقل، إنه لعدوان أثيم على الجانب الروحي في الإنسان، وذلك بحرمانه من أن يذوق بوسائله الإدراكية والوجدانية ما يغذّى هذا الجانب كما يفعل الإنسان فيما يتصل بغذائه الجسدي، علي أن دعوة الشيطان لآبائهم ولهم ليست محبة ومودة لهم، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر بهم، وستقر عينه باستحقاقهم عذاب السعير(١).

والآية بهذه الدلالات النفسية المنبعثة من ألفاظها وأساليبها صورت لنا المجادلة من خلال نموذج من الناس موجود في كل زمان ومكان، وعالجت حجة المجادلين.

١٠- قوله تعالي:﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.[غافر].

الجو النفسي لسباق الآيتان: لا شك أن القرآن كلام الله المعجز، وقد أدرك المشركون هذا، ولذا منعوا أتباعهم من سماعه حتى لا يتأثروا به فيؤمنوا به ويكفروا بآلهتهم، وادعو أن القرآن ليس وحيًا من عند الله وإنما هو من جنس كلام الشعراء والكهان وأنه من أساطير الأولين، فلم يكن بد من تحدي القرآن لهم بالإتيان بمثله، بل ولو بآية، بل إن التحدي وصل إلي أن يأتوا بمثل هذه الحروف المقطعة- كمثل﴿حمٓ ۝١﴾ التي بدأت بها سورة غافر- فكانت هذه الحروف المقطعة تستهويهم بإيقاعاتها الرصينة وأنغامها الخاصة، فسمع بعضهم القرآن، فلم يكن بد أن آمن عقلاؤهم؛ لأنهم علموا أنه﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾ فما كان من الله إلا أن وعدهم بأنه﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ أما الذين أصروا علي العناد فتوعدهم بأنه ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ غني عنهم، ثم أخبر أن مصير الجميع إليه﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ ثم ذكر هنا أحوال من يجادل في القرآن بغرض إبطاله وإطفاء نوره.

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي صـ ٦٤٩، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١١/ ٥٧٨، والتفسير الوسيط لمجموعة من العلماء ٨/ ٩٦.

التحليل النفسي للآيتان: قوله:﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ متعلق بقوله:﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾ المقتضي أن كون القرآن مُنَزَّلًا من عند الله أمر لا شك فيه، فينشأ في نفوس السامعين أن يقولوا: فما بال هؤلاء المجادلين في صدق نسبة القرآن إلى الله لم تقنعهم دلائل نزول القرآن من الله، فأجيب بأنه ما يجادل في صدق القرآن إلا الذين كفروا بالله، والمراد بالذين كفروا جميع الكافرين بالله من السابقين والحاضرين، أي ما الجدل في آيات الله إلا من شأن أهل الكفر والإشراك، ومجادلة مشركي مكة شعبة من شعب مجادلة كل الكافرين، فيكون استدلالًا بالأعم على الخاص. ولذا جاء التعبير بالمضارع(يجادل) الدال علي استمرارية الجدال، وفي التعبير بـ(في) الظرفية دل علي أن جدالهم قد حوي جميع أصناف الجدال وأنواعه [١].

وقد روي أن الآية نزلت في الحارث بن قيسٍ السُّلَمِيِّ، وكان أحد المستهزئين[٢].

والمراد بالجدال في آيات الله هنا الجدال بالباطل والخصومة فيها من الطعن فيها وتكذيبها من نحو قولهم:﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾[الْأَنْعَام] ومرة﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١١٠﴾[الْمَائِدَة:١١٠]، ومرة إنه شعر، وأخرى إنه من كلام الكهان، كما قال تعالي ردًا علي الكفار﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ﴾ [الحاقة] إلى أشباه ذلك من تلك المقالات السخيفة.

وقوله تعالي:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يفهم من هذا الاستثناء أن الجدال في آيات الله خاص بالكفار، فالآية حكم علي من يجادل في آيات القرآن بالكفر، ويفهم من الجو النفسي للآية أن الكون كله بما فيه من جماد ونبات وحيوان، وجميع ما خلقه الله كله معترف بآيات الله، فلا أحد يجادل في آية من آياته إلا هذه الشرذمة القليلة الحقيرة الكافرة من بني الإنسان، هي وحدها التي تشذ وتجادل في آياته [٣].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٤/ ٨٢.
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٦٤.
(٣) ينظر: التيسير في أحاديث التفسير لمحمد المكي الناصري ٥/ ٣٧٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ولما حكم الله تعالي علي المجادلين في آيات الله بالكفر أراد تسلية وتطمين رسوله والمؤمنين- بأسلوب النهي- أن مصير الشرذمة من الكافرين الذين يتظاهرون بالكبر والاستعلاء سيكون مصيرًا مفزعًا، فلا تغتروا بشيء من حظوظهم الدنيوية، فقال:﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾ فقد كانت تفيض عليهم الأموال من رحلتي الشتاء والصيف في الشام واليمن، وروي أن أصحاب رسول الله(ﷺ) قالوا متوجعين: نحن فقراء، والكفار مياسير ذو أموال، فأنزل الله هذه الآية[١].

ولما جاء النهي في قوله تعالي:﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾ فرّع عليه قوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ وما بعدها من آيات، فهي بيان لجملة: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾ والغرض من ذلك تحذير من يجادل في آيات الله- من مشركي قريش ومن يأتي بعدهم- بغرض إبطالها من عذاب الله إن استمروا في غيهم بضرب مثل لهم بمن تقدمهم من الأمم، فكما حل العقاب بأولئك كذلك ينزل بهؤلاء، فقال تعالي:﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ كعاد وثمود وأهل مدين وأصحاب لوط، وقوم فرعون وغيرهم، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم﴿وَهَمَّتۡ﴾ عزمت﴿كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ فيه وجهان: أحدهما: ليحبسوه ويعذبوه، حكاه ابن قتيبة. الثاني: ليقتلوه، قاله ابن عباس وقتادة [٢]. والتعبير بقوله:﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ يشعر بقوة الأخذ في خلسة وسرعة، ويشعر بمدي إصرار هؤلاء المكذبين على التمكن من إيذاء أنبيائهم، أي إن هؤلاء الأقوام لم يكتفوا بتكذيب أنبيائهم، بل حاولوا المكر وإلحاق السوء بهم، بل لما حال الله بين أكثر أنبياءه وبين هؤلاء المجادلين﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ والباء للملابسة، فخاصموا الرسل وجادلوهم ملابسين للباطل، وأقاموا لهذا الباطل حججًا، فزوَّروه في صورة الحق، ومجادلتهم من نحو قولهم لرسلهم:﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾[إبراهيم:١٠] وقولهم:﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٦/٥.
(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤/ ٣١.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢٢] ونحو ذلك، فهذا جدالهم، كما قالوا للنبي(ﷺ) نحو ذلك. وقيل: الباطل: الكفر. وقيل: الشيطان، ثم بين علة مجادلتهم﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليبطلوا به الحق ويزيلوه ويطمسوا معالمه، قال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان (١). ويقول ابن منظور:" الدَّحْضُ: الزَّلَقُ... ودَحَضَتْ حُجَّتُه دُحُوضًا: إذا بَطَلَت "(٢).

ويلاحظ من الجو النفسي للآيتين أن المجادلة هنا احتاجت إلي جهد من الكفار، من خلال تكرير الجدال واتخاذ جميع الوسائل في جدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق، فالمجادلة هنا تشبه العملية الكيميائية التي تحتاج إلي خلط المواد بعضها ببعض بحيث لا يمكن فصلها بسهولة، أو ربما لا يمكن الفصل أصلًا، ولذا فهي عملية احتاجت إلي جهد وتفصيل، وإلي رجال خبثاء مكارين يعرفون خبايا الأمور، ولذا جاء الجزاء بالفاء التعقيبية دلالة علي سرعة الأخذ والمحاسبة فقال:﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أخذ وبيلًا فهلكوا بعذاب الاستئصال، ولم تبق إلا الديار عبرة وعظة، كما قال تعالي: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾[القصص] وقال السدي:" فعذبتهم "(٣).﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ حذفت ياء المتكلم إشارة إلى أن أدنى شيء من عذابه بأدنى نسبة كاف في المراد، والجملة استفهام علي سبيل التعجب من استئصالهم، واستعظامٍ لما حلَّ بهم، وليس استفهامًا عن كيفية عقابهم؛ لأن العقاب كان مدمرًا عنيفًا شديدًا، تشهد به مصارع القوم الباقية آثارها، وكان كفار مكة يمرون على مساكنهم ويرون آثار ذلك فيهم(٤).

إن مشهد الجزاء لم ينته فهو ممتد الآثار في الآخرة، قال تعالي:﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ تهديد لمشركي مكة، والمعني النفسي للآية: ومثل قضائي على الذين تحزبوا على رسلهم من قبلك أيها

(١) ينظر: تفسيرمقاتل بن سليمان ٣/٧٠٥ وما بعدها، والجامع لأحكام القرآن ١٥/٢٩٣.
(٢) لسان العرب لابن منظور ٧/ ١٤٨(د ح ض).
(٣) النكت والعيون للماوردي ٥/ ١٤٤.
(٤) ينظر:البحر المحيط لأبي حيان ٩/٢٣٦، والسراج المنير للخطيب ٣/٤٦٨ وما بعدها.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

رسول، فحل بها عقابي واستحقوا أن يكونوا من أَصْحاب النار، مثل قضائي بقومك إن هم أصروا على الكفر والجدل في آياتي؛ لأن الأسباب واحدة، وهي كفرهم وجدالهم للحق.

١١- قوله تعالي:﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾.[غافر].

الجو النفسي لسباق الآية: بعد أن بينت سورة غافر أنه﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهددت مشركي مكة بأن مصيرهم- إن استمروا في كفرهم وجدالهم في آيات الله- مصير من سبقهم من الأمم السابقة المكذبة، أخذ الأسلوب القرآني بعد ذلك في سوق مثال لقصة نبي الله موسي-عليه السلام- مع فرعون وملئه، لما بين مشركي قريش وبين فرعون وملئه من تشابه كبير في الكبر والأنفة وتكذيبهم لنبيهم، قال تعالي:﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾ وليت فرعون وقف عند هذا الحد بل {وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ ولذلك استجار موسي بالله من فرعون لما توعده بالقتل﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾ وفي وسط هذه المعركة القائمة بين الحق والباطل (موسي وفرعون) قيَّض الله لموسي إنسانًا أجنبيًا من قوم خصمه، وهذا الرجل شرح الله صدره للإيمان، لكنه كتم إيمانه عن فرعون حتى لا يناله أذى فرعون، فأخذت الرجل غَضْبَة لله عندما علم بِهَمّ فرعون وقومه بقتل موسي-عليه السلام- فواجههم بما يلمس وتر النفس، وخاطبهم وأسدي لهم النصيحة باعتبار أنه واحد منهم، وأنه منصف في كلامه، وبصفة أنه مجرد ناصح لقومه أمين، لا بصفة كونه تابعًا من أتباع موسى وصحبه، وكأنه قاضي يجرد نفسه من أتباع أحد الفريقين إلا بالدليل العقلي والنفسي، وبهذا الأسلوب الحكيم استطاع أن يعرض قضية الإيمان بالله في وضوح

وجلاء، وفى جو هادئ غير محمل برجوم الردع والتحدّى[١]، فيتلطف معهم في القول بإلزامهم الحجج علي عدم قتله، قال تعالي:﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ التي شاهدتموها والتي تدل علي صدق ما يقول، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم، وهذا أقرب إلي مخاطبة العقل والنفس، فهو لا يخلو من أن يكون واحدًا من اثنين، إما أن يكون كاذبًا أو صادقًا﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي وإن فرضنا أنه كاذب فإن ضرر كذبه يعود عليه لا عليكم﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ وهو كذلك بالفعل﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ من العذاب﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ هذه الجملة تعريض بأن موسى ليس مسرفًا كذابًا، وتعريض بفرعون بأنه هو المسرف في عزمه على قتل موسى كذاب في ادعائه الألوهيَّة، ومن كان هذا شأنه فإن الله لا يهديه.

واستمر الأسلوب القرآني في الحوار بين الرجل المؤمن وبين فرعون وملئه إلي أن سجل عليهم غيهم هم وأسلافهم، حيث وبخهم بما تعودوا عليه من تكذيب الرّسل قال تعالي:﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴿٣٤﴾﴾ قانون عام، أي هكذا يصد الله عن إصابة الحق من هو كافر به، شاك في حقيقة أخبار رسله، وهو أيضًا حكم خاص على فرعون وملائه أنهم لن يهتدوا بسبب إسرافهم وارتيابهم، ثم يفسر هذا القانون العام بقوله﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ اسم الموصول هنا بيان للموصول الأول وهو(من) في قوله:﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴿٣٤﴾﴾ قال الزجاج:" هذا تفسير المسرف المرتاب على معنى هم الذين يجادلون "[٢]، أي يخاصمون في آيات الله التي أتت بها الرسل ومن بينهم موسى، ليدحضوها بالباطل من الحجج التي لا مستساغ لها من عقل ولا نقل، فيتمسكون

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٢/ ١٢٢٧.
(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ١٢/٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بتقليد الآباء وبتُّرهات الأباطيل التي لا يتقبلها ذوو الحصافة والرأي [١]، وقوله:﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ أي بغير حجة أتتهم من جهة الله، إما على أيدي الرسل، فيكون ذاك إشارة إلى الدليل النقلي وإما بطريق الإفاضة على عقولهم فيكون ذاك إشارة إلى الدليل العقلي، وقد يعمم فيكون المعنى: يجادلون بغير حجة أصلًا لا عقلية ولا نقلية [٢]. وقد تكون الكاف المقترنة باسم الإشارة في قوله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ إسقاط علي كفار مكة، ويكون المعنى إن ضلال المشركين بسبب إسرافهم وارتيابهم ومجادلتهم لرسول الله مثل ضلال قوم فرعون في إسرافهم وارتيابهم ومجادلتهم لموسى-عليه السلام- ولذا فسر ابن عباس قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يكذبون بمحمد(ﷺ) والقرآن، وهو أبو جهل وأصحابه المستهزئون [٣].

لكن هذا لا يمنع أن يكون هذا قانونًا عامًا وحكمًا بالضلال على كل من أسرف وارتاب وجادل﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ قال ابن عباس: يمقتهم الله، ويمقتهم الذين آمنوا بذلك الجدال، ومقت الله ذمه لهم ولعنه إياهم وإحلال العذاب بهم، ومقت المؤمنين تظهر آثاره في هجرهم والاحتراس من التعامل معهم، وعدم الركون إليهم في الدين والدنيا [٤].﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ أي شملت الضلالة جميع أجزاء القلب فلم يبق فيه محل للاهتداء، وليس فيه ذرة من إيمان، فهي عبارة عن شدة إظلامه[٥]، قال ابن عباس: يختم على قلوبهم فلا يسمعون الهدى ولا يعقلون الرشاد [٦].

---

(١) ينظر: تفسير المراغي ٢٤/ ٦٩.
(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي ٣٢١/١٢.
(٣) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ٣٩٦.
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٣١٣، وتفسير المراغي ٢٤/ ٦٩.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٥٥٩.
(٦) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ١٢/٤.

وهكذا استطاع الأسلوب القرآني بدلالاته النفسية أن يصور المجادلة في آيات الله بغير حجة، وحكم علي المجادل أنه سينال الجزاء الذي يستحقه في الدنيا والآخرة.

١٢- قوله تعالي:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾[غافر].

الجو النفسي لسباق الآية: سياق هذه الآية مرتبط بأول السورة، فقد جاء في أولها ذكر من هو الذي يجادل فِي آياتِ الله، فقال تعالي:﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[غافر:٤] ثم وضح الأسلوب القرآني أنهم يجادلون في آيات الله بدون حجة فقال:﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾، ثم بين الأسلوب القرآني هنا الدواعي النفسية والقلبية لجدال الكافرين، فقال:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ فالآية تخدم ما سبقها من معان، وهي كذلك تخدم المعاني التي ستأتي بعدها.

اختلف في سبب نزول الآية: روي أن الآية نزلت في اليهود، وكانوا يجادلون النبي (ﷺ) في الدّجّال، وعظّموا أمره، فقالوا: إن صاحبنا- يعني الدَّجَّال- يكون منا في آخر الزمان، ويبلغ سلطانه فيغلب على جميع الأرض، فيخوض البر والبحر، وتجري معه الأنهار، ويكون البحر إلى ركبتيه، والسحاب على رأسه، ويقتل ويُحيي، ومعه جبل من جنة، وجبل من نار، ويرد علينا المُلك، فلما قالوا هذا أنزل الله الآية [١].

ومعنى قوله:﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ على هذا القول أن الغلبة لا تكون للدجال على المسلمين، بل تكون للمسلمين على الدَّجَّال، فإن عيسى-عليه السلام- ينزل ويقتل الدَّجَّال نصرة للمسلمين، ويكون قوله:﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ أي: من شر الدَّجَّال على هذا القول،

(١) ينظر: تفسير مقاتل ٣/٧١٧، وتفسير السمعاني ٥/ ٢٧، ولباب النقول للسيوطي صـ ١٧٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ويكون لفظ الناس في الآية التي بعدها وهى قوله تعالي:﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ بمعني الدجال [١].

وعلق العلامة ابن كثير على هذا القول، فقال:" وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد"[٢]. ولم يذكره ابن جرير على ولعه بالغريب والضعيف، وليست هناك إشارة في القرآن الكريم إلى الدجال إلا في هذه الآية على فرض صحة هذه الرواية[٣].

والسياق(اللغوي) القبلي والبعدي للآية لا يخدم تخصيص المجادلة في الدجال؛ فليس للدجال أي ذكر في الآيات التي قبل الآية أو التي بعدها- بل ولا حتى في السورة كلها- فسياق الآيات القبلي في تسلية الرسول(ﷺ) من خلال قصة موسى -عليه السلام- وأن الله وعد الرسل بالنصر المحقق، وسياق الآيات البعدي يتحدث عن دلائل الله التي تثبت أنه الأحد الذي يستحق العبادة وحده، كخلقه للسماوات والأرض والليل والنهار، ولذا قال الماتريدي:" لسنا ندري بماذا صرفوا مجادلتهم في آيات الله إلى المجادلة في الدجال، ولا يسع أن نحمل ما ذكر من مجادلتهم في آيات الله على المجادلة في الدجال إلا أن يثبت خبر عن رسول الله(ﷺ) بطريق التواتر أن المجادلة المذكورة في الآية في الدجال، فحينئذ يصرف إلى ذلك "[٤].

والظاهر أن المجادلين في آيات الله هم كفار قريش، ومجادلتهم في دلائله على توحيده وكتبه المنزلة، وما أظهر على يد أنبيائه من الخوارق، وهذا القول أصح [٥].

وذهب كثير من المفسرين أن الآية عامة في كل مجادل مبطل، وإن نزلت في مشركي مكة أو اليهود، فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب [٦].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٥/ ٢٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ١٣٨.
(٣) ينظر: محاسن التأويل للقاسمي ٨/ ٣١٥.
(٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٩/ ٤٢.
(٥) ينظر:الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ١٨/٤، والبحر المحيط لأبي حيان ٢٦٦/٩.
(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٣٢٥، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٦١/٥.

التحليل النفسي للآية: قوله﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عبر بـ(إن) وبالاسم الموصول وبالفعل المضارع دلالة على شدة مجادلتهم واستمرارها، والمعنى النفسي للآية: إن الذين يخاصمونك أيها الرسول فيما أتيتهم به من عند ربك- من آيات الله البينات- ويجحدونها بالرغم من كونها ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة، "فيدفعون الحق بالباطل، ويَرُدُّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة "[١]،﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ أي من غير حجة يجادلون بها، وهو" إشعار بنفي الدليل السمعي، وقوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ إشعار بنفي الدليل العقلي، فدل على أن كفرهم عناد "[٢].

ثم بين الأسلوب القرآني السبب الحقيقي وراء مجادلتهم، قال تعالي:﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾(إن) نافية بمعنى(ما) أي ما﴿فِي صُدُورِهِمۡ﴾ أي قلوبهم، وآثر التعبير بالصدور دون القلوب؛ لعظم الكبر حتى إنه قد ملأ القلوب وفاض منها حتى شغل الصدور التي هي مساكنها، ولذا أثبت لهم الصفة الباعثة على المجادلة(الكبر) بطريق القصر لينفي أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخر غيرها على وجه مؤكد [٣].

والكبر من الانفعالات النفسية التي تشعر الإنسان بأنه أعظم من غيره فلا يرضى بمساواته به، ولذا كان الكبر من الصفات العائقة عن قبول الحق، ولا شيء فوقه من الذمائم، وقد ذكر الزبيدي أن الكبرياء: الترفع عن الانقياد، ولا يستحقه إلا الله تعالى، وأعظم الكبر التكبر على الله بالامتناع عن قبول الحق [٤].

وجملة:﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ إضراب على تلك المشاعر التي تتحرك في نفوس وصدور المجادلين من استخفاف بالنبي(ﷺ) ودعوته واستعلاءهم، لقد نفذ القرآن بهذه الكلمات القليلة إلى أغوار نفس هؤلاء المجادلين، ورصد حركاتها

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ١٣٨.
(٢) تفسير ابن عرفة ٣/ ٣٩٨.
(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي ١٧/ ٩٢، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٤/ ١٧٣.
(٤) ينظر: تاج العروس للزبيدي ١٤/ ٩ (ك ب ر).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وسكناتها، وكشف عما يندس في مساربها من خواطر وتصورات، والمعني النفسي: أي ما في قلوبهم إلا هذا الغرور الذي زينه الشيطان لهم، وإلا هذا التكبر عن الحق والتعظّم عن التفكر والتعلم والإقرار بالتوحيد، أو إلا إرادة الرياسة والتقدم على الإطلاق وألا يكون أحدٌ فوقهم، أو إلا إرادة دفع الآيات بالجدال، ولذلك يجادلون فيها لا أن فيها موقع جدال ما، وقيل: المراد بالكبر الأمر الكبير، أي يطلبون النبوة، أو أمرًا كبيرًا يَصِلون به إليك، وعليه يكون المعني: إن في صدورهم إلا إرادة أن تكونَ النبوة لهم دونك، وأنهم أحق بها حسدًا وبغيًا، ثم نفي الأسلوب القرآني أن يكون لهم ذلك، وعاملهم بنقيض مقصودهم، قال تعالي:﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ صفة لكبر، فهذا الكبر الذي يملأ صدورهم لن يبلغوا به ما يطمعون فيه من آمال، وكان مرادهم أن يهلك محمد(ﷺ) وأصحابه، ويندثر أثره ويصيروا حكاية. ويقال: كان مرادهم أن يغلبوا محمدًا ويعلو أمرهم أمره، قال مجاهد: ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، وهو ما أرادوه من التقدم والرئاسة، أو النبوة، أو دفع الآيات (١).

ثم أمر الله تعالى رسوله بقوله:﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ أيها الرسول من كيد المجادلين المتكبرين وشرهم بالله﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما يقولون﴿ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ بما يعملون وما تكنه صدورهم، وهو ناصرك عليهم، وعاصمك من شرهم.

ثم عالج الأسلوب القرآن نفس هؤلاء المجادلين كبرًا من خلال التنبيه على عظمة هذا الكون الذي خلقه الله، وصغر الناس جميعًا بالقياس إلى السماوات والأرض، قال تعالي:﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ والمعني النفسي للآية يتضمن حقيقة كونية كبرى هي تحديد مركز الإنسان بالنسبة إلى بقية الأكوان حتى لا يداخله الغرور، كأنه قال: خلق السموات ورفعها بغير عمد، وإجراء الكواكب والشمس والقمر في مجاريها، وخلق الأرض وبسطها ونصب الجبال عليها أكبر من خلق الناس جميعًا، فعلام الكبر! فأين هؤلاء المتكبرين من الناس؟ وأين الناس من السموات والأرض؟ إن كل ذلك

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٥/ ٢٧، والكشاف للزمخشري ٤/ ١٧٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٣٢٥، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٧/ ٢٨١.

من خلق الله، وفى قبضته، فهل الذي خلق هذا الوجود وقام بسلطانه يعجزه قهر هؤلاء المتكبرين، وإذلالهم والتنكيل بهم! فما بال هؤلاء يتكبرون على خالقهم، وينتفخون ويتشامخون، وهم من أصغر مخلوقاته وأحقرها، وفى قوله:﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ إشارة إلى جهل هؤلاء المشركين المجادلين وغيرهم من الضالين بقدرة الله التي إذا وضعوا أنفسهم إزاءها كانوا أشبه بالذرّ أو النمل تحت سفح جبل شامخ، فهم لا يعلمون شيئًا من هذا، ولا يتدبرونه تدبرًا يهديهم إلى الحق وإلى الإيمان والتصديق(١).

١٣- قوله تعالي:﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩﴾ [غافر].

الجو النفسي لسباق الآية: تلك هي الآية الرابعة في سورة غافر التي يذكر فيها لفظ الجدال، الأولي حددت أن الذي يجادل في آيات الله هم الكفار، والثانية أخبرت أنهم يجادلون بالباطل بغير سلطان أتاهم، فهي بيان لابتناء جدالهم على معنى فاسد، والثالثة حددت الدواعي النفسية والقلبية لجدال الكفار، وبيّنت مظاهر ذلك وأهداف أصحابه، ثم أخذ الأسلوب القرآني في بيان جزاء المجادلين؛ حيث صرفهم الله عن رؤية آياته، وما ينتج عن ذلك من استحقاقهم العذاب، فقال تعالي:﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩﴾.

التحليل النفسي للآية: وجه الخطاب بأسلوب قصد به استثارة التعجب من انصراف المجادلين في آيات الله ومكابرتهم فيها وتكذيبهم لها وانسياقهم وراء الأوهام، فالاستفهام بهذا الأسلوب يقتضي التعجب والإنكار والتوبيخ واستغباء المجادل:﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي انظر وتعجب من السلوك الذميم لهؤلاء المكابرين وسفههم ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بالباطل ويستمرون فيها كما يفيده التعبير بالمضارع﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالطعن فيها، ومحاولة إبطالها، وصرف الناس عن قبولها وحملهم على إنكارها وتكذيبها، وأنها ليست من عند الله مع قيام الأدلة الموجبة للإيمان بها

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٢٧/٥، والتفسير القرآني للقرآن ١٢/ ١٢٥٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الزاجرة عن الجدل في صحتها، ولذا عبر بالظرف(في) الذي يدل على إحاطة الظرف بالمظروف﴿أَنَّىٰ﴾ أي كيف، وهي مستعملة في التعجيب﴿يُصۡرَفُونَ ٦٩﴾ عنها- بعد ما تقرر عندهم أنها آيات الله- إلى الجحود والتكذيب والجدال فيها بالباطل.

وقد اختلف فيمن نزلت هذه الآية، وبالتالي في المجادلين، قيل: نزلت في الْقَدَرِيَّة حتى قال ابن سيرين: إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية فلا أدري فيمن نزلت، لكن السياق اللغوي(البعدي) لا يخدم هذا القول؛ لأن الله- تعالى- قد وصف هؤلاء المجادلين بصفة تدل على غير ما قالوه، فقال:﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: بالقرآن، وهذا وصف لا يصح أن يطلق على فرقةٍ من فرق الإسلام، وأيضًا يلزم قائلي هذا القول أن يجعلوا قوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ كلامًا مستأنفًا في الكفار، وذلك بعيد، وقال ابن زيد وغيره: هم الكفار المجادلين في رسالة محمد(ﷺ) والكتاب الذي جاء به بدليل قوله:﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾ (١).

ثم فسرت المجادلة بقوله:﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي بالقرآن، أو بجنس الكتب السماوية فإن تكذيبَهُ تكذيبٌ لها﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾ من سائر الكتب على الوجه الأول، أو مطلق الوحي والشرائع وما اشتملت عليه من التوحيد على الوجه الثاني(٢).

وقوله تعالي:﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠﴾ عاقبة ما ارتكبوه من الجدال، وجزاء تكذيبهم ووبال كفرهم، وما ينتظرهم من عذاب الله، وفي هذا وعيد شديد، ثم فصّل الأسلوب القرآني هذا الوعيد، بأسلوب التهديد المخيف في صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة فقال:﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾ المراد بالأغلال" الأعمال التي هي كالأغلال، وهي أيضًا مؤدِّية إلى كون الأغلال في أَعناقهم يوم القيامة؛ لأن قولك للرجل: هذا غُلٌّ في عنقك، للشَّيْءِ يَعْمَلُهُ إنما معناه أنه لَازِمٌ لك وأَنك مُجَازًى عليه

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٤/ ٥٦، والبحر المحيط لأبي حيان ٩/ ٢٧١، وفتح القدير ٤/٥٧٤.
(٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥/ ٦٣.

بالعذاب "[١]. وكلمة﴿فِى﴾ إشعار بإحاطة الأغلال لجميع جوانب أعناقهم إحاطة الظرف للمظروف فلا يستطيعون معها حركة﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ جمع سلْسِلة: مَعْرُوفة، دائرة من حديد ونحوه، وقال الراغب: تُصوِّر فيه تَسَلُّل مُتَردِّد، فرُدِّد لفظُه تنبيهًا على تَرَدُّد معناه [٢]. ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي يجرون جرًا بعنف، فمادة(س ح ب) تدل علي "جَرِّ شَيْءٍ مَبْسُوطٍ وَمَدِّهِ "[٣]، وهذا يدل علي أنهم يجرون غاية الجر حتي تكاد أعضاءهم تقتلع من بعضها﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ الحميم: الماء الحار، وعن ابن الأعرابي: الحميم إن شئت كان ماء حارًّا، وإن شئت كان جمرًا تَتَبَخَّرُ به [٤]. ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي يحرقون بها ويشتد اضطرامها، والسَّجْر: إيقَادُك في التَّنُّور تَسْجُرُه بالوقود، وسَجَرَ التَّنُّورَ يَسْجُرُه: أوقده وأحماه، وقيل: أشبع وقوده [٥].

وعلي هذا يكون المعني النفسي للآية أن المجادلين في آيات الله سوف يعلمون ما أعده الله لهم يوم القيامة حين تكون الأغلال في أعناقهم فلا يستطيعون معها الحركة، والسلاسل الطوال مشدودة بأيديهم وأرجلهم، يجرون كما تجر البهائم، تجرهم بها الملائكة على وجوههم في الماء الذي تناهي في الحرارة، فتتقطع جلودهم وتنسلخ لحومهم، ثم بعد ذلك يسجرون ويطرحون في النار فيكونون وقودًا لها.

والمراد برسم هذه الصورة الرهيبة المفزعة التي تقشعر من سماعها جلود الذين يخشون ربهم هو ردع هؤلاء المجادلين في آيات الله﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾على سبيل التوبيخ والتقريع حتى يكون في طرح السؤال علي هذه الجهة عذاب نفسيًا بالإضافة إلي العذاب الحسي السابق فتزداد حسرتهم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيجيبوا خائبين خاسرين﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا وتخلوا عنا، بل أضربوا

(١) لسان العرب لابن منظور ١١/ ٥٠٤ (غ ل ل).
(٢) ينظر: المفردات للراغب صـ ٤١٨، وتاج العروس للزبيدي ٢٩/ ٢١٨ (س ل س ل).
(٣) مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ١٤٢ (س ح ب).
(٤) ينظر: لسان العرب لابن منظور ١٢/ ١٥٤ (ح م م).
(٥) ينظر: لسان العرب لابن منظور ٤/ ٣٤٦ (س ج ر)، وتاج العروس ١١/ ٥٠٣ (س ج ر).

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأنكروا﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي لم نكن ندعوا شيئًا ينفع ويجيرنا من هذا العذاب، أو أن عبادتهم لها صارت هباء منثورًا، لا قيمة ولا جدوى منها، فيكونوا قد ضيعوا أوقاتهم فيما لا فائدة منه﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾ فهذا الجزاء لا شك في استحقاقهم له بسبب أفعالهم، ثم يزداد المشهد صعوبة، فقد كان يظن أن هذا هو نهاية المطاف، ولكن﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٦﴾ فالمشهد السابق العنيف المفزع ليس هو العذاب، بل مقدمة له، وأما العذاب الحقيقي فهو دخولهم أبواب جهنم السبعة كلها كما يفيده قوله: ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ ثم تأتي صفة التأبيد التي تقطع عليهم كل أمل في الخلاص من جزاء الجدال في آيات الله.

وهكذا نرى كيف أن الأسلوب القرآني لسورة غافر بما فيه من دلالات نفسية لتلك المجادلات يصبّ في مصبّ واحد، فمحور المجادلات وإن كان واحدًا(وهو الجدل في آيات الله) لكن التفاصيل الخاصة بكل آية من آيات المجادلة مختلفة، وكل آية في محلها تترابط مع أختها بحيث تؤدي خدمة متكاملة، وبمجموع الآيات يتكامل التفصيل للمحور الرئيس، فكل مجادلة تعطي صورًا تناسب المقام الذي ذكرت فيه، فأسلوب المجادلة في السورة يصور الأشخاص والوقائع والمشاهد تصويرًا واضحًا كأنك تري المجادلة وتشاهدها، ويصور غرض وهدف المجادلة من كبر وجحود، ويصور ما ترتب علي المجادلة من جزاء، ويصورها في مشهد من مشاهد الذعر، حقًا إنه القرآن، وتلك هي بعض عجائبه التي لا يحيط بها إلا الله.

١٤- قوله تعالي:﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥﴾(الشورى).

الجو النفسي لسباق النص: لا يزال القرآن في سورة الشورى في عرض خصائصه، فتبدأ بتلك الحروف التي أبهرت وأعجزت أولو الفصاحة﴿حمٓ ١﴾ ثم ثني بقوله: ﴿عٓسٓقٓ ٢﴾ لتزداد الحيرة والإعجاب من القرآن، ثم أخذ الأسلوب القرآني مذكرًا بأنه خلق السموات والأرض وأن مقاليدهما بيده، مما يدل على قدرته

ووحدانيته فقال:﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ ﴾ (الشورى:١٢) وعليه فقد اتضحت الأمور ولا حجة لأحد في الجدال، ولذا قال تعالي بعد ذلك:﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ في توحيده وقدرته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعد أن ظهر الحق واستجاب العقلاء لهذا الدين الحق، واتبعوا رسوله﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زائلة باطلة﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ ثم وبخ- سبحانه- الذين يشكون في الساعة ويجادلون في صحة وقوعها بعد كل هذا ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾، ثم ساق الأسلوب القرآني بعد ذلك لوناً من ألوان نعم الله على عباده تدل علي كمال وعظم قدرته فقال:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ مشهد حسي يراه الناس كثيرًا حينما يؤخر الله المطر عن النزول- وهو سبب الحياة- فتجدب الأرض ويحدث العطش، ويجأر الناس، ويقنطوا ويعجزوا ويظنوا أنه الموت، فتنزل من الله الرحمة والغيث بمقادير وكميات محددة وفي أزمان وأماكن محددة، وفي ظروف محددة فتعم الخيرات والأرزاق، هذا المشهد المزدحم بالأضداد بين اليأس والرحمة والمنع والإعطاء يدل علي أن لهذا الكون خالق قادر يستحق العبادة، ثم تتوالي مشاهد القدرة في أنصع وأضخم مشاهدها تنطق بمطلق القدرة، فقال:﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ فهو قادر علي جمع الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء، وفي هذا إشارة إلي أنهم كانوا يجادلون في البعث، ثم بين تعالى لوناً من ألوان رحمته فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ومع هذا﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ فله الحمد والمنة، فلا تظنوا أيها الناس أنكم﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ فلا يستطيع أحد الفرار من قدرة الله، ثم مثل لهذا العجز بمثال حسي يرونه بأعينهم في البحر يدل علي عظم قدرة الله التي يجادل فيها المتكبرون، فقال تعالى:﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

كَثِيرٍ﴿٣٤﴾ والمعني النفسي للآية: ومن حجج الله علي الناس الدالة علي بسط سلطانه وقدرته تسخيره تلك السفن الضخمة الجارية فوق سطح الماء في البحر العميق كالجبال الشاهقة في عظمها وارتفاعها بكل ما تحمله من تلك الأثقال من الناس والبضائع، فتروج التجارة والصناعة، ويتبادل الناس المنافع، كل هذا وفقاً لنواميس قدرها الله، وقوله:﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ يعني إن يشأ الله الذي قد أجرى هذه السفن في البحر أن يختبر راكبها بإحدى بليتين: الأولي: أن لا تجري السفن في البحر ويمنع حركتها، فتثبت على ظهر الماء فلا تتقدّم ولا تتأخر، إنه الموت بعد الحياة، فيدق جرس الخطر خوفاً علي حياة الناس، وعلي منافع التجارة﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ لا يعقلها إلا من كان كثير الصبر والشكر. والبلية الثانية: عبر عنها بقوله:﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي يهلكهن بإرسال الريح العاصفة العاتية المغرقة، فيثيرها ويهيجها فيضطرب لها البحر ويعلو الموج، ويفلت زمام السفينة من يد أصحابها، فتشرد ولا يعرف لها جهة، فيحدث الغرق﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾" من الذنوب، وقيل: بما أشركوا، والأول أولى؛ فإنه يُهْلِك في البحر المشرك وغير المشرك "(١).﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ بالصفح ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لهلك كل من ركب البحر، لكنه يمهلهم، وتسري السفن في أمان، حتي إذا جاء اليوم الذي يجادلون فيه يكون الحساب والجزاء.

التحليل النفسي للآية: قوله:﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ المجادلة يحتمل أن تكون في آيات الله القرآنية، بدليل تحدي القرآن لهم بالحروف المقطعة في أول السورة، وقد تكون المجادلة في قدرته علي البعث، بدليل توبيخ الله للذين يجادلون في صحة وقوع الساعة﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ ولذا جاء الأسلوب القرآني بدلالاته النفسية يخاطب نفس وعقل المجادلين بعرض ألوان من النعم في مشاهد حسية يرونها بأعينهم، تحمل في طياتها الخوف والرجاء، كإنزال الغيث من بعد القنوط، وفي خلق السموات والأرض، وغير ذلك من النعم،

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/ ٦١٨.

ثم يغير الأسلوب القرآني نغمة الخطاب ليرتفع لكي ترتفع معه الهمم وتتحرك تلك العقول الميتة، فيعرض في مشهد حسي مرعب تلك السفن الجارية في البحر، وفي الرياح التي تسير مطمئنة، منتظرة بين الحين والآخر مشهد السكون التام أو الحركة العنيفة مشهد حينما تتذكره العقول السليمة تهفو بنداء الحق، وأنه القادر، وحينها﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ جزاءهم وأنه﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ۝٣٥﴾ "المَحِيص: المَحِيد، والمَعْدِل والمَمِيل، والمَهْرَب "[1] من عقاب الله إن أراد إهلاكهم بسبب جدالهم، فهم في قبضته مقهورون بربوبيته، فيكون ذلك أدعى لاعترافهم بأنه القادر، فيخلصون له العبادة، وقد حذف" متعلق المحيص إبهامًا له تهويلًا للتهديد لتذهب النفس كل مذهب "[2].

١٥- قوله تعالي:﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾[الزخرف].

الجو النفسي لسباق الآية: ذكرت سورة الزخرف أنواعًا من قبائح أقوال كفرة قريش بدءًا من قوله تعالى:﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ [الزخرف:١٥] وثانيها: قوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾[الزخرف:١٩] وثالثها: قوله:﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡۗ﴾[الزُّخْرُفِ:٢٠] ورابعها: قوله:﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ۝٣١﴾[الزُّخْرُفِ:٣١] وخامسها: الآية التي معنا.

التحليل النفسي للآية: هذه الآية والتي قبلها تحكي طرفًا من مجادلة الكفار مع الرسول(ﷺ)، قال تعالي:﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ۝٥٧﴾ وقد اختلف فيما ذكر من ضرب المثل لعيسى بن مريم، فقيل: إنه لما نزل قوله تعالي:﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[آل عمران] ونزل مع ذلك ذكر عيسى والثناء عليه، وما أظهر الله على يده من الآيات، وأن

(١) تاج العروس للزبيدي ١٧/ ٥٤١ (ح ي ص) .
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٥/ ١٠٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

النصارى قد جعلوه إلهًا لأنفسهم، وذكر حاله وكيف خلق من غير فحل، جعلت قريش تضج، وتقول: ما يريد محمد من ذكر عيسى إلا أن نعبده نحن كما عبدت النصارى عيسى، فهذا كان صدودهم من ضربه مثلًا، فعند هذا قالوا:﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ حكاية لطرف من المثل المضروب، يعني أنهم قالوا: إن محمدًا يدعونا لعبادة نفسه وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام، وإذا كان لا بد من عبادة أحد هذين فعبادة الأصنام أولى؛ لأن آبائنا أجمعوا على ذلك، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته [١].

ومعنى يَصِدُّون علي هذا الرأي يضجون ويضجرون ويسخرون ويعرضون، والضمير على هذا في﴿أَمۡ هُوَۚ﴾ لمحمد(ﷺ) وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم الاستهزاء به[٢].

الرأي الثاني فيما ذكر من ضرب المثل لعيسى، وهو الرأي الذي عليه جمهور المفسرين، ورجحوه، وهو أن النبي(ﷺ) دخل المسجد وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، وفي المسجد العاص بن وائل السهمي، والحارث وعدي ابنا قيس، كلهم من بني سهم، فقال لهم النبي(ﷺ)﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾[الأنبياء]، ثم خرج إلى باب الصفا، فخاض المشركون في ذلك وامتعضوا امتعاضًا شديدًا؛ لأن مضمون هذه الآية يقتضي أن المشركين وجميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله سيكونون في جهنم، فدخل عبد الله بن الزبعري السهمي، فقال: تخوضون في ذكر الآلهة، فذكروا له ما قال النبي(ﷺ) لهم ولآلهتهم، فقال ابن الزبعري: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لنا ولآلهتنا ولجميع الأمم وآلهتهم، فقال النبي(ﷺ) بل هي لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ولآلهتهم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثني عليه وعلى أمه خيرًا، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما، وعزير يعبد، والملائكة تعبد(وروي أنه

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٥/ ١١١ وما بعدها، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥/ ٦٠، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٧/ ٢٨٢، والجواهر الحسان للثعالبي ٥/ ١٨٦.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥١/٨، والبحر المديد لابن عجيبة ٢٥٨/٥.

قال له: وهذه بنو مُلَيحٍ تعبد الملائكة) فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون معهم، فسكت النبي(ﷺ) انتظارًا للوحي، وفرح القوم وضحكوا وضَجُّوا من ذلك فأنزل الله:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ يعني الملائكة وعزيز وعيسى ومريم﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء] وأنزل﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾ أي يرتفع لهم ضجيج وضحك وجلبة فرحًا بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله(ﷺ)، فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج، وهذا شأن الجماعة يطلع عليها أمر على غير ما تتوقع، وهى في مأزق حرج، فتتعلق بهذا الأمر الذي ترى فيه فرجًا ومخرجًا، فتصيح بصيحات الفرح المجنون الذي تختلط فيه الأصوات، فلا يعرف للكلمات مدلول، وإن عرف للإشارة والحركات مفهوم يدل على الفرحة والابتهاج﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست خيرًا من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون [1].

ومعنى قوله:﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ على القول الأول، أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الخصومة بالباطل، فهم متيقنون في جميع المدة التي أقمتها في مكة بينهم أنك لا ترضى أن تُعبد بوجه من الوجوه، وأنك لا تدعوهم إلا إلى عبادة الله الواحد الذي لا شريك له، كما قال تعالي:﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾[آل عمران:٦٤] وقال:﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾[آل عمران] وقال:﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف]﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[الأنبياء] فزالت شبهتهم في قولهم: إن محمدًا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه وأن ذلك ما هو إلا افتراء منهم.

---

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٧٩٨ وما بعدها، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ٤/ ٧٨، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٧/ ٦٣٩، والدر المنثور للسيوطي ٥/ ٦٧٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومعنى قوله:﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ على القول الثاني، أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الفرق بين الحق والباطل، وذلك أنهم قالوا: إن قال آلهتكم خير فقد أقرّ بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خير من آلهتكم، فقد أقرّ بأن عيسى يصلح لأن يعبد، وإن قال: ليس واحد منهم خيرًا، فقد نفى عن عيسى ذلك، هم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه، ولم يكن سؤالهم للاستفادة، فكان جواب النبي(ﷺ): أن عيسى-عليه السلام- خير من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يعبد؛ إذ ليس كلّ ما هو خير بمستحق أن يكون معبودًا من دون الله، وهكذا بيّن الله لنبيه أنهم قوم جدلون﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ دأبهم اللجاج والمشاكسة لا الوصول إلى جوهر الحق؛ وذلك لأن قوله:﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ما أريد به إلا الأصنام، ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة، إلا أن ابن الزبعرى بخبه وخداعه وخبثه أراد بجداله أن يغلب في الظاهر لا أن يتطلب الحق في نفسه، فأورد على رسول الله(ﷺ) إشكالًا وقياسًا فاسدًا، وسأله هل سيكون عيسى بن مريم أيضًا في جهنم كما تكون فيها أصنام المشركين وأوثانهم التي يعبدونها من دون الله، هذا وهو يعلم مسبقًا أن عيسى كان رسولًا ولم يكن معبودًا، لكنه أراد أن ينتقل من هذا القياس الفاسد إلى أن آلهتهم ومعبوداتهم لن تكون في النار ما دام عيسى لا يدخل النار، وهو في نظرهم ليس خيرًا من آلهتهم، فابن الزبعرى لما رأى كلام الله ورسوله محتملًا لفظه وجه العموم، مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير، وجد للحيلة مساغًا، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريقة المحك والجدال وحب المغالبة، وتوقح في ذلك، فتوقر رسول الله(ﷺ) حتى أجاب عنه ربه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ فدل به على أن الآية خاصة في الأصنام [١].

والآية التي تمسكوا بها لا تدل على ما زعموه، وهم أهل اللسان، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات؛ لأن الله إنما عبَّر بـ(ما) التي هي في الموضع العربي لغير العقلاء فقال:﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون، وذلك صريح في أن المراد

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري ٤/٢٦٠، والتيسير في أحاديث التفسير لمحمد الناصري ٥/٤٨٣.

الأصنام، وأنه لا يتناول عيسى ولا عزيرًا ولا الملائكة، وقد روي أنه(ﷺ) قال لهم: إنما عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك، كما قال تعالى﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ﴾[سبأ:٤١] وروي أنه رد علي ابن الزبعري وقال له(ﷺ): ما أجهلك بلغة قومك، أما فهمت أن(ما) لما لا يعقل، فهي خاصة بالأصنام، فأنزل الله:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾، فلا شك أن السياق البعدي للآية التي احتجوا بها دل أن عيسى وغيره من الأنبياء غير داخلين في الآية(١).

وذكر بعض العلماء- أيضًا- وجوهًا في الرد علي مجادلتهم، وهو أن كلمة (ما) ليست صريحة في الاستغراق، بدليل أنه يصح إدخال لفظتي الكل والبعض عليها، فيقال: إنكم وكل ما تعبدون من دون الله، أو إنكم وبعض ما تعبدون من دُون الله، كما أن الخطاب خطاب مشافهة؛ لأن الخطاب للمشركين الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصنامًا وأوثانًا ولا يعبدون المسيح، وهب أن قوله:﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عام، إلا أن النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه، والخاص مُقدّم على العام (٢).

وقد أخذ الأسلوب القرآني بعد ذلك في تفنيد حجتهم في عبادة المسيح والملائكة، وفي معالجة نفسية هؤلاء المجادلين، فبين أن عيسى ليس برب، وما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل، فقال:﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العبيد هذا قصارى أمره، وإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم: إن محمدًا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ "بالنبوة "(٣). ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ حيث صيرناه آية وعبرة عجيبة لهم كالمثل السائر، يعرفون به قدرة الله على ما يريد؛ حيث خلقه من غير أب، كما خلق آدم، وقيل: معنى(مَثَلًا) أي بشرًا مثلهم فضل عليهم (٤).

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٦/ ٨٦، وأضواء البيان للشنقيطي ٧/ ١٢٤.
(٢) ينظر: لطائف الإشارات للقشيري ٢/ ٥٢٣، ٣/ ٣٧١، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٧/ ٦٤٠.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٧٩٩.
(٤) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي ١٧٧/٩، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب القيسي ١٠/ ٦٦٨٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فالآية كالجواب المزيح لشبهتهم منبهه على بطلان رأي من رفع عيسي عن رتبة العبودية، أي: مع كون عيسى رفيع المنزلة والمكانة، ولكنه لا يستحق أن يكون معبودًا لكونه عبدًا وبشرًا من عباده تعالى، جعله دليلًا على قدرته؛ حيث أوجده من غير أب وهو بشر، فلم يكن إلها أو ابن إله كما زعمت النصارى، وقد أنعمنا عليه بالعديد من النعم رحمة وتفضلًا منا، فأين هو من رتبة الربوبية حتى يعبد.

ثم جاء السياق البعدي للآية مبينًا الدعوة التي دعا عيسى إليها النصارى، فقد كانت قاصرة على إفراد الله بالعبادة، فهو لم يدع أحدا من أتباعه لا إلى عبادته ولا إلى تأليهه، قال تعالي:﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾ كما قال في آية أخرى:﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾[المائدة:١١٧]، ثم أخذ الأسلوب القرآني في توضيح مصدر العقيدة الباطلة التي انتشرت عن المسيح بين فرق النصارى المختلفة، فقال: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ إشارة إلى الفرق التي انقسمت إليها النصرانية بعد عيسى، والتي اخترعت بمحض خيالها عقيدة المسيح الإله، أو المسيح ابن الله.

ثم أخذ الأسلوب القرآني في ردّ شبهة من عبد الملائكة ونظروا إليهم نظرة ترفعهم إلى مقام الألوهية، قال تعالي:﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠﴾ والمعني النفسي للآية: أي ولو نشاء- لقدرتنا على عجائب الأمور- لولدنا منكم يا رجال ملائكة- خلقًا وتكوينًا- يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل، فإن الذي خلق الملائكة جندًا في السماء قادر على أن يخلق ملائكة ليكونوا خلفاء في الأرض، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن دخول التَّوْلِيد والتَّولُّد في الملائكة أمر ممكن، وأن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام، وذات القديم متعالية عن ذلك [١]، وإذا كان الأمر

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري ٤/ ٢٦١ ، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٧/ ٦٤٠.

كذلك فكيف يُتوهم استحقاقهم للعبودية، أو انتسابهم إليه تعالى مع أنهم من مخلوقاته.

وبهذا تكون الآية– التي نحن بصددها– بهذه الدلالات النفسية المنبعثة من ألفاظها ووحداتها اللغوية والأسلوبية استطاعت أن تصور المجادلة، وعالجت المجادلين من خلال التنبيه على أن النظر الذي ينظرون به إلي المسيح والملائكة علي أنهم آلهة نظر فاسد، فإنه مهما يكن مقام المخلوق في المخلوقات فإنه عبد وخلق من عباد الله، يعبد الله ويسبح بحمده، شأنه في هذا شأن كل مخلوق كما قال تعالي:﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾[النساء:١٧١].

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من أُرسل بالحق لهداية جميع المخلوقات، وبعد،

فتلك دراسة تناولت فيها الفلسفة الأسلوبية للفظ جدل في القرآن الكريم في ضوء علم اللغة النفسي، وكان من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة-

١- كذب الشبه التي ألقيت علي اللغة العربية من أنها مجرد ألفاظ جامدة يغلب عليها الأسلوب المنطقي الجاف، وافتقادها للاتجاه النفسي وأبعاده وآثاره.

٢- استفادة علم اللغة النفسي الحديث من علمائنا القدامى؛ لأنهم وإن لم يقعدوه لكنه جاء في ثنايا كتبهم وأثناء تحليلاتهم للنصوص، كما رأينا في تفسيرات القرآن.

٣- ما ورد من الجدال في القرآن كان علي سبيل الذم إلا في أربعة مواضع كما سبق، وفي هذا إشارة إلي أنه في الأصل ينبغي ألا يكون، وأنه من شأن المعاندين إلا ما كان من الجدل للوصول إلي الحق.

٤- أسلوب القرآن الكريم بلغته في عرض قضايا الجدال كان معجزًا، حيث صاغها في عبارات ترسم صورًا حسية حتي يتوهم أنها تشاهد وأنها مما تظهر في العيان، ويجعل الإثارة الوجدانية قائمة علي التشخيص، وفي خلال هذا كان- أحيانًا- ينوّع في أساليبه ومؤثراته للجدال، فيعدد نعمه وآلائه حينًا- علي طريق التلطف وإمعان النظر- وحينًا يرتفع أسلوب الخطاب ونغمته ليخاطب المجادلين المعاندين بالشدة وذكر ألوان العذاب في محاولة لمعالجة النفس البشرية المعاندة، كل هذا في قوة بيانية قوية، وهذا- دائمًا- سمت القرآن الذي لا يشركه فيه قسيم.

٥- أسلوب القرآن حينما يمثل مشهد الجدل لقوم إنما يمثله في مشهد تصويري واحد دائم متجسد في أحداث التاريخ وعقلية الأقوام المتلاحقة؛ نتيجة التشابه في الأفكار والسلوك، فحينما يعالج قضية من قضايا الجدال يعالجها من باب أنها قضية كلية، ولذا كان خطاب القرآن وأسلوبه واحد أثناء عرضه لتلك المشاهد

والأحداث، وبذلك حقق الغرض المقصود وهو الترغيب في الإيمان، والتنفير من الكفر، من خلال تصوير حال المجادل، وما آل إليه مصيره وجزاؤه.

٦- ترابط أجزاء الأسلوب القرآني- في التعبير عن الجدال- وتعلق بعضها ببعض بما يسمي بالوحدة العضوية، بحيث لا يحس معها القارئ بطفرة أو تفكك، بل نجد رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، وهذا له بعد نفسي يمنح النص القدرة والفعالية في مجال التأثير في المتلقي واحداث الاستجابة المناسبة، ولعلنا نلاحظ هذا واضحًا -علي سبيل المثال- في المجادلات الواردة في سورة غافر، فالأسلوب فيها يصبّ في مصبّ واحد، فمحور المجادلات وإن كان واحدًا(وهو الجدل في آيات الله) لكن التفاصيل الخاصة بكل آية من آيات المجادلة مختلفة، وكل آية في محلها تترابط مع أختها بحيث تؤدي خدمة متكاملة، وبمجموع الآيات يتكامل التفصيل للمحور الرئيس. فأسلوب المجادلة صور الأشخاص المجادلين وصور الوقائع تصويرًا واضحًا كأنك تري المجادلة وتشاهدها، وصور حالهم في مجادلتهم، وأنها مجادلة بغير حجة، وصور السبب النفسي للمجادلة وهو الكبر، وصور ما ترتب علي المجادلة من جزاء في مشهد من مشاهد الذعر. وهذه بعض عجائب القرآن التي لا يحيط بها إلا الله. تلك بعض النتائج التي تفتقت عنها الدراسة.

وأخيرًا أوصي بدراسة نصوص العربية في ضوء جوها النفسي للكشف عن أسرارها وخفاياها والدرر الكامنة فيها، ودفع تهمة أنها لغة يغلب عليها الأسلوب المنطقي.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فهرس المصادر والمراجع

١- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطيّ، الشهير بالبَنَّاء- حققه: أنس مهرة- دار الكتب العلمية - لبنان- ط٣- ٢٠٠٦م- ١٤٢٧هـ.

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٢- أسباب نزول القرآن أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي- حققه: كمال بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١١هـ.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت – لبنان- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي- حققه: محمد عبد الرحمن المرعشلي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١- ١٤١٨هـ.

٥- بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي- تحقيق: د: محمود مطرجي- دار الفكر – بيروت.

٦- البحر المحيط في التفسير لمحمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي- حققه: صدقي محمد جميل- دار الفكر- بيروت- ١٤٢٠هـ.

٧- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة- حققه: أحمد عبد الله رسلان-الناشر: د:حسن عباس زكي- القاهرة-١٤١٩هـ.

٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي- حققه: محمد علي النجار- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة – ١٩٩٦م.

٩- تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد مرتضى الزَّبيدي- حققه: مجموعة من المحققين- دار الهداية -١٩٨٤م.

١٠- تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، حققه: أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين- بيروت- ط٤-١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
١١- تأويلات أهل السنة لأبي منصور محمد الماتريدي- حققه: د: مجدي باسلوم- دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان- ط١- ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
١٢- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر- تونس- ١٩٨٤هـ.
١٣- تطور علم اللغة منذ ١٩٧٠م، جرهارد هلبش، ترجمة: د/ سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق- القاهرة- ط١- ٢٠٠٧م.
١٤- تفسير ابن عرفة لمحمد بن عرفة الورغمي التونسي- حققه: جلال الأسيوطي- دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان- ط١- ٢٠٠٨م.
١٥- التَّفْسِيرُ البَسِيْط لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي- أصل تحقيقه في رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- عمادة البحث العلمي- ط١- ١٤٣٠هـ.
١٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير- حققه: محمد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت- ط١- ١٤١٩هـ.
١٧- تفسير القران العظيم لعبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن أبي حاتم- حققه: أسعد محمد الطيب- مكتبة نزار مصطفى الباز- السعودية- ط٣- ١٤١٩هـ.
١٨- تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني- حققه:د. مصطفى مسلم محمد- مكتبة الرشد- الرياض- ١٤١٠ه.
١٩- تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني- حققه: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم- دار الوطن، الرياض- ط١-١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٢٠- التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب - دار الفكر العربي- القاهرة -١٣٩٠ه.
٢١- تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي- مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده- مصر-ط١- ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٢٢- التفسير المظهري لمحمد ثناء الله المظهري- حققه: غلام نبي التونسي- مكتبة الرشدية- الباكستان- ١٤١٢هـ.
٢٣- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د: وهبة بن مصطفى الزحيلي- دار الفكر المعاصر- دمشق- ط٢- ١٤١٨هـ.
٢٤- التفسير الواضح، د: محمد محمود حجازي- دار الجيل الجديد- بيروت- ط١٠- ١٤١٣هـ.
٢٥- التفسير الوسيط، د: وهبة الزحيلي- دار الفكر- دمشق- ط١- ١٤٢٢هـ.
٢٦- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر- الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية- ط١- ١٩٩٣م.
٢٧- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د: محمد سيد طنطاوي- دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة – القاهرة- ط١- ١٩٩٨م.
٢٨- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين الهرري، راجعه: د. هاشم محمد علي – دار طوق النجاة، بيروت – لبنان- ط١- ٢٠٠١م.
٢٩- تفسير مجاهد لأبي الحجاج مجاهد بن جبر- حققه: د. محمد عبد السلام أبو النيل – دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر- ط١-١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
٣٠- تفسير مقاتل بن سليمان لأبي الحسن مقاتل بن سليمان البلخي- حققه: عبد الله محمود شحاته- دار إحياء التراث – بيروت- ط١- ١٤٢٣هـ.
٣١- تفسير يحيى بن سلام ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة- حققه: د. هند شلبي- دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- ط١- ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
٣٢- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ينسب: لعبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- جمعه: مجد الدين الفيروزآبادى- دار الكتب العلمية- لبنان.
٣٣- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري- حققه: محمد عوض مرعب- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١- ٢٠٠١م.
٣٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي- حققه: عبد الرحمن بن معلا اللويحق- مؤسسة الرسالة- ط١-١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٣٥- التيسير في أحاديث التفسير لمحمد المكي الناصري- دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان- ط١- ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
٣٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري، حققه: د:عبد الله ابن عبد المحسن التركي- دار هجر للطباعة والنشر- ط١- ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
٣٧- جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن عبد الرحمن الحسيني الإِيجي- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.
٣٨- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله(ﷺ) وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري- حققه: محمد زهير- دار طوق النجاة – ط١- ١٤٢٢هـ.
٣٩- الجامع لأحكام القران لأبي عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي- حققه: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية – القاهرة- ط٢- ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
٤٠- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي- حققه: محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود- دار إحياء التراث العربي- بيروت-ط١- ١٤١٨هـ.
٤١- حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني للشيخ علي الصعيدي العدوي المالكي- حققه: يوسف الشيخ محمد البقاعي- دار الفكر- بيروت -١٤١٢ه.
٤٢- الحجة للقراء السبعة لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ- حققه: بدر الدين قهوجي، وبشير جويجابي- دار المأمون للتراث – دمشق، بيروت- ط٢-١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٤٣- الدر المنثور لجلال الدين السيوطي- دار الفكر – بيروت.
٤٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي- حققه: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤١٥هـ.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٤٥- زاد المسير في علم التفسير لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي- حققه: عبد الرزاق المهدي-دار الكتاب العربي- بيروت- ط١- ١٤٢٢هـ.
٤٦- زهرة التفاسير، للشيخ: محمد أبي زهرة - دار الفكر العربي- القاهرة.
٤٧- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير لمحمد بن أحمد الخطيب الشربيني-مطبعة بولاق(الأميرية)- القاهرة- ١٢٨٥هـ.
٤٨- العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ لمحمد الأمين الشنقيطي- حققه: خالد بن عثمان السبت- دار عالم الفوائد، مكة المكرمة- ط٢- ١٤٢٦هـ.
٤٩- علم اللغة الحديث، د: محمد حسن عبدالعزيز، مكتبة الآداب- القاهرة - ط١- ٢٠١١م.
٥٠- علم اللغة النفسي مناهجه ونظرياته وقضاياه، د: جلال شمس الدين، مؤسسة الثقافة الجامعية- الإسكندرية- ٣٠٠٣م.
٥١- علم اللغة النفسي، د: عبدالعزيز إبراهيم العصيلي، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية- ط١- ٢٠٠٦م، ١٤٢٧هـ.
٥٢- كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي- حققه: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي- دار ومكتبة الهلال.
٥٣- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للحسن بن محمد النيسابوري- حققه: الشيخ: زكريا عميرات- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٦هـ.
٥٤- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني- دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت- ط١-١٤١٤هـ.
٥٥- فصول في علم اللغة العام، د: عمرو خاطر وهدان- مؤسسة حورس الدولية - الإسكندرية- ط١- ٢٠١٠م.

٥٦- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية لنعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان- دار ركابي للنشر- الغورية، مصر- ط١-١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
٥٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لجار الله الزمخشري- دار الكتاب العربي – بيروت- ط٣- ١٤٠٧هـ.
٥٨- الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق أحمد الثعلبي- حققه: الإمام أبي محمد بن عاشور- راجعه: نظير الساعدي- دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان- ط١-١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.
٥٩- لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي- ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي- دار الكتب العلمية- بيروت – لبنان.
٦٠- اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي- حققه/ الشيخ: عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ: علي محمد معوض- دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان- ط١- ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م.
٦١- لسان العرب لابن منظور- دار صادر – بيروت- ط٣- ١٤١٤هـ.
٦٢- لطائف الإشارات لعبد الكريم بن هوازن القشيري- حققه: إبراهيم البسيوني- الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر- ط٣.
٦٣- محاسن التأويل لجمال الدين بن محمد القاسمي- حققه: محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٨هـ.
٦٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي- حققه: عبد السلام عبد الشافي محمد- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١- ١٤٢٢هـ.
٦٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل- حققه: شعيب الأرنؤوط، وآخرون- مؤسسة الرسالة- ط١-١٤٢١هـ- ٢٠٠١ م.
٦٦- معالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه: عبد الرزاق المهدي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١-١٤٢٠هـ.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٦٧- معاني القرآن للفراء، حققه : أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي- دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر- ط.١
٦٨- معاني القرآن وإعرابه للزجاج- حققه: عبد الجليل عبده شلبي- عالم الكتب – بيروت- ط١- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٦٩- مفاتيح الغيب للفخر الرازي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط٣- ١٤٢٠هـ.
٧٠- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني- حققه: صفوان عدنان الداودي- دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت- ط١- ١٤١٢هـ.
٧١- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، حققه: عبد السلام محمد هارون- دار الفكر- ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
٧٢- منهج البحث اللغوي، د: محمود سليمان ياقوت- دار المعرفة الجامعية- ط١-٢٠٠٠م.
٧٣- الموسوعة الفقهية الكويتية، صادرة عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، دارالسلاسل – الكويت (١٤٠٤ه- ١٤٢٧هـ)- ط.٢
٧٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي- دار الكتاب الإسلامي- القاهرة- د.ت.
٧٥- النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي- حققه: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم- دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان.
٧٦- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره لمكي بن أبي طالب القيسي- حققه: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا- جامعة الشارقة، بإشراف: د. الشاهد البوشيخي-مجموعة بحوث الكتاب والسنة- ط١- ٢٠٠٨م.
٧٧- الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي- حققه: الشيخ: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- ط١- ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٣٢٨١
٢-	Abstract	١٣٢٨٢
٣-	مُقَدِّمَة	١٣٢٨٣
٤-	التمهيد	١٣٢٨٧
٥-	أولًا: علم اللغة النفسي ماهيته ومجالاته.	١٣٢٨٧
٦-	ثانياً: مصطلح الجدال، الماهية والأنواع والأحكام والمظاهر.	١٣٢٩٠
٧-	المبحث الأول: أسلوب القرآن في التعبير عن جدل الإنسان في ضوء علم اللغة النفسي.	١٣٢٩٤
٨-	المبحث الثاني: أسلوب القرآن في التعبير عن جدل الرسل في ضوء علم اللغة النفسي.	١٣٣٠٠
٩-	المبحث الثالث: أسلوب القرآن في التعبير عن جدل المؤمنين في ضوء علم اللغة النفسي.	١٣٣١٦
١٠-	المبحث الرابع: أسلوب القرآن في التعبير عن جدل الكفار في ضوء علم اللغة النفسي.	١٣٣٣٣
١١-	الخاتمة	١٣٣٩٠
١٢-	فهرس المصادر والمراجع	١٣٣٩٢
١٣-	فهرس الموضوعات	١٣٣٩٩